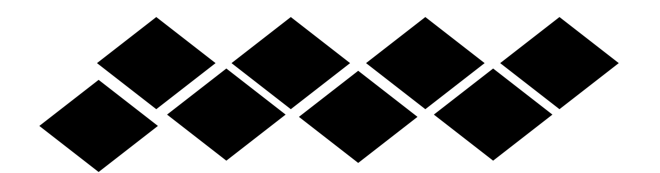






مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

الترجمان في العصر المملوكي: دليل ومرشد الحجاج الأوربيين

(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

د. إبراهيم محمد حامد سليمان

أستاذ مساعد بقسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم – جامعة المنيا

DOI: 10.21608/QARTS.2022.126088.1389

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – العدد (٥٦) يوليو ٢٠٢٢

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

الترجمان في العصر المملوكي: دليل ومرشد الحجاج الأوربيين

(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

الملخص:

بالرغم من خروج الصليبيين نهائيا من جميع بلاد الشام عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م، بعد سقوط عكا على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، وبالرغم كذلك من المنشورات البابوية المتعددة التي كانت تحرم وتجرم ممارسة أي تجارة مع سلطنة المماليك، إلا أن رحلات الحج إلى الشرق لم تشهد مثل هذا التشدد ولم تعرف توقفا، واستمر توافد هؤلاء الحجاج القادمين من شتى البلدان الأوربية طيلة فترة الحكم المملوكي. ويأتي هذا البحث لدراسة الدور الحيوي الذي لعبه "التراجمة" في مصر وبلاد الشام في استقبال هؤلاء الحجاج الأوربيين؛ إذ إن تلك الفئة كانوا بمثابة الوسطاء بين هؤلاء الوافدين الأوربيين من ناحية وبين السلطات المملوكية والأهالي في مصر وبلاد الشام من ناحية أخرى. والواقع أن مهمة التراجمة لم تقتصر على عملية الترجمة فحسب، وإنما كانوا بمثابة مرشدين وأدلاء لهؤلاء الحجاج؛ فكانوا يرافقونهم في كل مكان يذهبون إليه، وهم كذلك من يعد لهم جميع التجهيزات أثناء تنقلاتهم من مدينة لأخرى، فضلا عن أنهم كانوا بمثابة "المرشدين السياحيين" المرافقين لهم في جميع مزاراتهم الدينية والأثرية. كما أن البحث يبرز أهم المدن المصرية والشامية التي تواجد بها هؤلاء التراجمة، ويبين أهم الخدمات التي قدموها للحجاج، بالإضافة إلى الحديث عن طبيعة العلاقات التي ربطتهم بالحجاج.

الكلمات المفتاحية: الترجمان، العصر المملوكي، الحجاج الأوربيون، بيت المقدس، القاهرة.

المقدمة:

على الرغم من استعادة المسلمين لبيت المقدس، ثم خروج الصليبيين نهائيا من جميع بلاد الشام عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م (بعد سقوط عكا على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون [١])، وبالرغم كذلك من المنشورات البابوية المتعددة التي كانت تحرم وتجرم ممارسة أي تجارة مع سلطنة المماليك، إلا أن رحلات الحج إلى "الأماكن المسيحية المقدسة" لم تشهد مثل هذا التشدد ولم تعرف توقفا؛ فقد كان مسموحا بالسفر لأولئك الذين يريدون زيارة "قبر المسيح" شريطة الحصول أولا على إذن وموافقة من البابوية، وعلى ذلك فقد استمر توافد هؤلاء الحجاج القادمين من شتى البلدان الأوربية، ومن أجناس وأعراق متعددة طيلة فترة الحكم المملوكي [٢].

وإذا كانت لا توجد بين أيدينا إحصائية مفصلة ودقيقة بأعداد الحجاج خلال تلك الحقبة الزمنية، إلا أن هناك بعض الدراسات قامت بجمع أسماء ما يزيد عن ١٤٠٠ شخص من الحجاج الألمان فقط الذين توجهوا للشرق في الفترة من ٦٩٩هـ/١٣٠٠م وحتى ١٠٠٨هـ/١٦٠٠م. ولا شك أن تلك الأعداد المتزايدة من الحجاج باتجاه أراضي السلطنة كانت بتشجيع من سلاطين المماليك أنفسهم؛ فالمحافظة على استمرار الحج الغربي المسيحي كان يعني تحقيق أهداف ومصالح على المستويين السياسي والاقتصادي؛ فسياسيا كان السماح لهؤلاء الحجاج بزيارة الأراضي المقدسة يمثل دعاية مهمة لسلطنة المماليك لدى الغرب الأوربي، توضح روح التسامح الديني لسلاطين مصر، من خلال الرعاية والاهتمام والحماية التي كانوا يوفرونها لهؤلاء الحجيج. وهي صورة مهمة يستطيع أن يستفيد منها السلاطين المماليك عند دخولهم في أي مفاوضات مع الغرب الأوربي. أما على المستوى الاقتصادي– والذي يعد الجانب الأكثر أهمية– فإن الأموال التي كانت تجبى من الحجاج– نتيجة لفرض الرسوم والضرائب المتعددة على

هؤلاء الحجاج في العديد من الأماكن والمزارات الدينية- كانت تمثل جزءا مهما في خزينة الدولة المملوكية، هذا فضلا عما كان يصاحب قدوم أفواج الحجاج المسيحيين من انتعاش لحركة البيع والشراء داخل الأسواق التجارية في القدس وغزة والقاهرة والإسكندرية وغيرها من المدن الأخرى [٣].

مهما يكن من أمر، فإن وصول هؤلاء الحجاج الأوربيين بتلك الأعداد الكبيرة إلى بلاد الشام ومصر كان يستلزم بطبيعة الحال من السلطات المملوكية تنظيم هذه العملية، وتعيين عدد من الموظفين الذين يقومون برعايتهم والإشراف عليهم. وفي هذا السياق برزت لنا فئة "التراجمة" الذين كانوا بمثابة الوسطاء بين هؤلاء الوافدين الأوربيين من ناحية وبين السلطات المملوكية والأهالي في مصر وبلاد الشام من ناحية أخرى؛ إذ إن جهل هؤلاء الأجانب باللغة العربية كان يعيق التعامل والاتصال المباشر بين الطرفين. والواقع أن مهمة التراجمة لم تقتصر على عملية الترجمة فحسب، وإنما كانوا بمثابة مرشدين وأدلاء لهؤلاء الحجاج؛ فكانوا يرافقونهم في كل مكان يذهبون إليه، وهم كذلك من يعد لهم جميع التجهيزات أثناء تنقلاتهم من مدينة لأخرى، فضلا عن أنهم كانوا بمثابة "المرشدين السياحيين" المرافقين لهم في جميع مزاراتهم الدينية والأثرية.

انطلاقا مما سبق، تأتي هذه الدراسة لتلقي الضوء على تلك الأدوار والالتزامات التي قام بها التراجمة تجاه الحجاج الأوربيين القادمين إلى البلاد المصرية والشامية، وتوضح طبيعة العلاقة التي ربطت ما بين الجانبين. وتكمن أهمية وقيمة البحث في المصادر الأصيلة التي اعتمد عليها؛ فمعظم المعلومات مستقاة من روايات الحجاج الأوربيين أنفسهم، الذين كانوا ملازمين بالتراجمة في معظم الفترات التي قضوها في مصر وبلاد الشام. والواقع أننا نجد في مصادر العصر المملوكي ما يشير بوضوح إلى وجود عدد من التراجمة الذين كانوا يتقنون العديد من اللغات الأوربية والأعجمية داخل ديوان الإنشاء،

وبيان المكانة والمنزلة المميزة التي تبوؤها؛ فقد أشار إلى ذلك كل من ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) [٤] والقلقشندي (ت ٨٢١هـ) [٥] والمقريزي (ت ٨٤٥هـ) [٦] وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) [٧] وشمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ) [٨] وابن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ) [٩]. فهؤلاء التراجمة كانوا مسئولين عن تلقي الكتب الواردة إلى السلطان المملوكي من حكام الشرق والغرب على السواء، ثم القيام بترجمة تلك الكتب وعرضها على السلطان ثم الرد عليها. وفي هذا الخصوص يذكر القلقشندي أنه عند وصول كتاب من جهة ملوك الفرنج إلى البلاط السلطاني "فك ختمه وترجم بترجمة الترجمان بالأبواب السلطانية، وكتب تعريبه في ورقة مفردة، وألصقت به بعد كتابة الجواب من التعريب" [١٠]. بل إن القلقشندي يذكر أهمية معرفة الكتاب بديوان الإنشاء باللغات الأعجمية قائلا: "لا يخفى أن الكاتب يحتاج في كماله إلى معرفة لغة الكتب التي ترد عليه بملكه أو أميره ليفهمها ويجيب عنها من غير اطلاع ترجمان (من خارج الديوان) عليها، فإنه أصون لسر ملكه وأبلغ في بلوغ مقاصده" [١١]. ومما يدل على المهمة الكبيرة المنوطة بكتاب السر– وهم المشرفون على ديوان الإنشاء– وصفهم بلقب "لسان الممالك" و"لسان ملوك الأمصار"، والمعنى كما وضحه القلقشندي يعني أن هؤلاء الكتاب يتكلمون بلسان هؤلاء الملوك وينقلون حديثهم ورسائلهم للسلطان المملوكي [١٢]. لكن بالرغم من كل ذلك فإننا لا نعثر في تلك المصادر على أي إشارة للدور الحيوي الذي لعبه التراجمة كمرافقين ومرشدين للحجاج المسيحيين الأوربيين القادمين إلى أراضي الدولة المملوكية، وهنا تكمن أهمية ما كتبه الرحالة والحجاج أنفسهم من مشاهدات ومعاينات للدور الذي لعبه التراجمة معهم أثناء زياراتهم وتنقلاتهم بين المدن المصرية والشامية.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتي مشتملا على ثلاثة محاور: **الأول** منهم يتحدث عن التراجمة في بلاد الشام، ويعرض لأهم المدن التي تواجدوا بها مثل يافا

والقدس وغزة، كما يبين أهم الخدمات التي قدموها للحجاج، ووقوفهم إلى جانبهم في وقت الأزمات، ثم التعرض لبعض الشكاوى والانتقادات التي وجهها الحجاج لتراجمة القدس وغزة. أما **المحور الثاني** فقد خصص للحديث عن منصب "كبير التراجمة" بالديار المصرية، وهو المسئول الأول عن جميع المسيحيين الغربيين الوافدين إلى أراضي السلطنة، وذلك من خلال عرض أهم الخدمات التي كان يقدمها للحجاج، وذكر قيمة الأموال التي كان يتحصل عليها– لنفسه وللسلطات– نظير رعايته وحمايته لهم، ثم نظرة هؤلاء الأوربيين لشخصية "كبير التراجمة"، وطبيعة العلاقات التي ربطت بينهما. كما يتعرض هذا المحور لإلقاء الضوء على واحد من أهم وأشهر من تولوا هذا المنصب في العصر المملوكي وهو تغري بردي، خاصة وأن العديد من الحجاج قد أفاضوا في الحديث عن هذه الشخصية. أما **المحور الثالث والأخير** فيتعرض للحديث عن "الترجمان" بمدينة الإسكندرية، وأهم المهام التي كان يقوم بها، سواء عند وصول الحجاج الأوربيين للمدينة، أو عند مغادرتهم لها. ثم **يختم** البحث بذكر أهم النتائج التي توصل إليها الباحث خلال هذه الدراسة، ويليه ثبت بالمصادر والمراجع.

١. التراجمة ببلاد الشام وأهم مهامهم

تعد بلاد الشام هي الوجهة الأولى والرئيسة للحجاج المسيحيين الغربيين القادمين إلى منطقة الشرق، والسبب في ذلك يعود بطبيعة الحال إلى وجود أهم المزارات الدينية المسيحية المقدسة في هذه المنطقة، وفي مقدمتها مدن بيت المقدس [١٣] والناصرة [١٤] والخليل [١٥] وغيرها. كذلك الشيء الذي يمكن ملاحظته في هذا السياق هو كثرة عدد التراجمة الذين كانوا يرافقون الحجاج الغربيين سواء في بلاد الشام أو في مصر، وهم موجودون في كل مدينة يذهب إليها هؤلاء الحجاج؛ فيذكر فليكس فابري أنه في جميع المدن والبلدان الخاضعة لنفوذه، كان السلطان المملوكي يعين بعض الموظفين الذين يسمون بالتراجمة *truchemans*، الذين كان منوط بهم مهمة إرشاد ومرافقة جميع المسيحيين واليهود القادمين إلى أراضي السلطان [١٦]. كما أن جورج لنجراند يشير إلى كثرة عدد التراجمة في القدس وغزة [١٧] وغيرهما من المدن الشامية الأخرى، ذاكرا أنهم كانوا يعينون مباشرة من قبل السلطان المملوكي، للقيام بمهامهم تجاه الحجاج الذين يصلون إلى أراضي السلطنة [١٨].

ولعل أول لقاء للتراجمة مع الحجاج المسيحيين على الساحل الشامي كان يتم في مدينة يافا [١٩]. فيذكر تافور أن ميناء يافا كان هو الميناء الرئيس لمدينة القدس، وأن الحجاج القادمين من جزيرة قبرص دائما ما كانوا يبحرون إلى هذه المدينة [٢٠]. كما أن برتراندون بروكيير يقول إنه وأصحابه من الحجاج لما وصلوا إلى ميناء يافا– قادمين من جزيرة قبرص وذلك في عام ٨٣٥هـ/١٤٣٢م– وصل إليهم عدد من التراجمة والجنود المماليك المرسلين من قبل السلطان المملوكي، وقد كانت مهمتهم معرفة عدد الحجاج واستلام الضريبة المفروضة عليهم، ثم بعد ذلك اصطحابهم إلى أماكن إقامتهم [٢١].

كما أشار أحد الحجاج الغربيين الواصلين إلى ميناء يافا في عام ٨٦٥هـ/١٤٦١م- ويدعى لويس دي روشيشوار- إلى الإجراءات التي طبقت عليهم عند وصولهم لهذا الميناء؛ إذ إنهم بمجرد وصولهم قاموا بمراسلة حاكم مدينة الرملة [٢٢] كي يأخذوا منه إذنا وتصريحا *sauf-conduit* للدخول إلى المدينة، ثم بعد وصول موافقة الحاكم نزل الحجاج الأوربيون إلى الميناء، وأتى موظف من قبل السلطات- يسمي الكاتب- ليقوم بإحصاء وتدوين أسماء الحجاج، وكان بصحبته كذلك "كبير التراجمة" المعين من قبل السلطان المملوكي، وكان يسمى خليل Callilus. وقد أشار روشيشوار إلى أن خليل هذا لم تكن له دراية باللغة الإيطالية، وإنما كان بصحبته اثنان من التراجمة يعملان معه- أحدهما يدعى عبد القادر والآخر يسمى محمد- وكانا يجيدان الإيطالية والألمانية، وهما من تكفل بمهمة الحديث والتواصل مع هؤلاء الحجاج. وكان من مهام هؤلاء التراجمة كذلك إحضار الدواب التي سينقل بواسطتها الحجاج من الميناء إلى داخل المدينة، أو الانتقال بهم إلى مدينة أخرى [٢٣]. كما أن كازولا أشار إلى أن الترجمان الذي كان في استقبالهم هو من قام بإعداد القافلة التي كانت ستتحرك بالحجاج باتجاه مدينة الرملة؛ حيث إنه قام بتجهيز الدواب التي سيمتطي ظهورها الحجاج، كما أنه من باب الحماية كانت القافلة مصحوبة بعدد كبير من الحراس والجنود المماليك المسلحين بالأقواس والسهام [٢٤].

والواقع أن دور الترجمان- كما يروي روشيشوار- لم يقتصر على مجرد الاستقبال في الميناء، وإنما كان كذلك دليلهم الذي يصطحبهم أثناء تنقلهم من مدينة إلى أخرى، خاصة وأنه لم يكن مسموحا للحجاج المسيحيين بالتجول داخل أي مدينة بمفردهم، وإنما لابد أن يكون هناك ترجمان بصحبتهم. لذلك وجدنا الترجمان خليل- المذكور آنفا- مرافقا لهؤلاء الحجاج أثناء ذهابهم من يافا إلى الرملة، وهو كذلك الذي خرج بهم في زيارة وجولة

داخل طرقات تلك المدينة، ثم بعد ذلك ارتحل بهم إلى مدينة القدس- المقصد الرئيس للحجاج في رحلتهم- لزيارة الأماكن والمزارات المسيحية [٢٥].

وفي الحقيقة، جذبت مهنة "الترجمان" كثيرا من أبناء القدس للعمل بها، خاصة مع كثرة عدد الحجاج الغربيين الذين يفدون لهذه المدينة المقدسة؛ فكانوا يرافقونهم ويذهبون بهم إلى المزارات المسيحية سواء أكانت موجودة داخل المدينة أو قريبا منها، وكان دافعهم والمحفز لهم في هذا الأمر هو المقابل المادي المجزي الذي سيتحصلون عليه من هؤلاء الحجاج بعد إتمام مهمة إرشادهم، كما أن هؤلاء التراجمة كانت لهم نسبة وعمولة تصل إلى ٢٠٪ يتحصلون عليها من تجار المدينة، نظير ما يشتريه منهم الحجاج. بالإضافة إلى ذلك فإن هؤلاء التراجمة كانوا يأتون بعدد من الأشخاص، الذين يقومون بطهي الطعام، وسقي الماء، وتقديم جميع الخدمات المتعلقة بالمأكل والمشرب للحجاج المقيمين بالقدس [٢٦]. وبحسب ما يذكره كازولا [٢٧] فإن النفقات الاعتيادية للحجاج المسيحيين الغربيين القادمين إلى القدس (حوالي عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م) كانت كالتالي:

وجه الإنفاق	القيمة المدفوعة
جزية وضريبة للسلطان	٧ دوكات[٢٨] و١٧ جروسي[٢٩] *grossi*
أجر الترجمان (المعين من السلطان)	دوكة واحدة
أجرة أصحاب الدواب (المكارية)	٣ دوكات
نفقات أخرى (تسدد عند المزارات المسيحية)	مختلفة ومتنوعة (في المتوسط دوكتان)
متوسط إجمالي ما ينفقه كل حاج	١٣ دوكة ونصف

وبطبيعة الحال كانت النفقات- بما فيها الممنوحة للمترجم- تزداد في حالة إذا ما قرر الحاج مواصلة الرحلة باتجاه دير سانت كاترين بسيناء [٣٠]، ثم التوجه من هناك لزيارة مدينة القاهرة، وهو ما سيتم ذكره لاحقا.

مهما يكن من أمر، فإن وجود الترجمان مع الحجاج الأوربيين كان شرطا أساسيا للسماح لهم بالخروج لزيارة بعض المدن القريبة من القدس، والتي تشتمل على مزارات مسيحية؛ فيذكر لنا برتراندون أنهم لما قرروا الخروج باتجاه الناصرة وجبل طابور في منطقة الجليل (يسميه المسيحيون جبل التجلي) تحدثوا مع الترجمان الكبير ناصر الدين، الذي أبدى موافقته وسمًى لهم أحد التراجمة الذين يعملون معه لاصطحابهم في تلك الرحلة. وإن كان هذا الرحالة يخبرنا بعدم إتمام تلك الزيارة؛ نظرا لأن الترجمان نصحهم بعدم الإقدام على هذا الأمر بسبب اضطراب الأوضاع في المنطقة؛ إذ إن أحد الحجاج البنادقة والترجمان المرافق له كانوا قد لقوا حتفهم- منذ فترة قريبة- وهم في طريقهم إلى مدينة الناصرة، وهو الأمر الذي دفع برتراندون ومن معه للتخلي عن تلك الفكرة [٣١]. لكن الملاحظ من رواية برتراندون أن الترجمان لم يكن من صلاحياته السماح لمسيحي الغرب بزيارة المساجد الإسلامية- كتلك الموجودة في مدينة الخليل، والتي كان يظن هؤلاء الحجاج أنها تشتمل على بعض الأضرحة المسيحية-، مؤكدا لهم أنه لا يجرؤ على اصطحابهم إليها، "بسبب الأخطار التي يمكن أن تلحق بهم"[٣٢].

ويبدو أن العربان كانوا يمثلون خطرا حقيقيا على الحجاج المسيحيين، خاصة أثناء تنقلهم بين المدن الفلسطينية؛ من ذلك أنهم لما كانوا في منطقة بين الرملة والقدس خرج عليهم عشرون أعرابيا وهم يمتطون الخيول، ومعهم بعض الآلات الحربية كالرماح والأقواس والهراوات، ولما رأى الترجمان أن الأخطار محدقة بهؤلاء الحجاج طلب منهم أن يعطوهم بعض الأموال حتى يتركوهم يمرون بسلام، وإلا "فإنهم سيقومون بتدميرهم

والقضاء عليهم" [٣٣]. كما أن الحجاج لم يستطيعوا في بعض الأحيان الذهاب إلى منطقة "نهر الأردن"، وسبب ذلك كما أخبرهم الترجمان هو انتشار "الأعراب المسلحين" في هذا المكان، وهو الأمر الذي كان يمثل خطورة على حياة هؤلاء المسيحيين. كما أن الترجمان أبلغهم أنهم إذا ما رغبوا في القيام بتلك الزيارة فيجب أن تصحبهم من القدس حراسة كبيرة من الجنود لحمايتهم، "ولردع هؤلاء العربان" [٣٤].

من ناحية أخرى، فإن بعض الحجاج بعد الانتهاء من زيارة القدس كانوا يرغبون في مواصلة الرحلة باتجاه سيناء لزيارة دير سانت كاترين، ومن هناك كانوا يتوجهون لزيارة مدينة القاهرة، وفي هذه الحالة كان يلزم هؤلاء الحجاج الاتفاق مع أحد التراجمة لاصطحابهم في تلك الرحلة الطويلة. والواقع أن هذا الأمر قد أوجبته السلطات المملوكية على هؤلاء الأوربيين، الذين- كما ذكر آنفا- لم يكن مسموحا لهم بالتنقل في البلاد بمفردهم. وخلال هذه الرحلة كان التراجمة مسئولين عن توفير الدواب التي سينتقل بواسطتها الحجاج، إلى جانب الالتزام بدفع الضرائب "والاكراميات" التي تطلب من الحجاج في أماكن المزارات المسيحية، أو من طرف السلطات المملوكية [٣٥]. في هذا السياق يذكر أحد الحجاج الفرنسيين أنهم لما قرروا المسير باتجاه دير سانت كاترين اتفقوا مع مترجم يسمى Amet (ربما حامد)، وقد وصف هذا المترجم بأنه كان أمينا، كما أنه يمتدحه بأنه قدم لهم كثيرا من النصائح، لكنه أخذ منهم مبلغا كبيرا في مقابل ذلك. ويضيف الحاج الفرنسي أن مهمة هذا الترجمان كانت تقتضي أن يرافقهم بنفسه حتى سيناء، ثم يأخذهم بعد ذلك إلى المطرية [٣٦]، في ضواحي القاهرة. كما كان مسئولا على أن يوفر لكل واحد من الحجاج دابة للتنقل، بالإضافة إلى جمل لحمل جميع أغراضهم ومتعلقاتهم، وأن يسدد عنهم جميع الضرائب و"الاكراميات" خلال الرحلة كاملة. وفي مقابل ذلك التزم كل واحد من الحجاج بأن يسدد له ٢٥ دوكة، وهو مبلغ مبالغ فيه، بحسب رواية هذا الحاج [٣٧].

ويضيف الحاج الفرنسي أنه بينما كان هو وزملاؤه يستعدون للرحلة بشراء كل ما يحتاجونه من سلع وأغذية، فإن الترجمان حامد كان يرافق بقية الحجاج- الذين لم يرغبوا في مواصلة الرحلة إلى سيناء والقاهرة- إلى الساحل، حيث كانت تنتظرهم في ميناء يافا احدى سفن البنادقة، التي كانت ستقلهم إلى بلدانهم الأوربية [٣٨].

من ناحيته، يذكر كلود دي ميربل Claude de Mirebel أنه بعد انتهاء الحجاج من زيارة الأماكن المسيحية في بيت المقدس والمنطقة المحيطة بها فإنهم توجهوا إلى ميناء يافا لأخذ السفينة التي ستقلهم إلى أوربا، بيد أن هناك عددا قليلا من هؤلاء الحجاج- وهو واحد منهم- كانت لديهم الرغبة في مواصلة رحلتهم باتجاه سيناء والقاهرة، وهو الأمر الذي جعلهم يدخلون في مراسلات مع حاكم الرملة للموافقة على هذا الطلب، وإمدادهم بأحد التراجمة لملازمتهم كمرشد ودليل خلال تلك الرحلة [٣٩]. ومن خلال رواية هذا الحاج يمكننا إلقاء الضوء على المبالغ التي كان يتحصل عليها الترجمان خلال هذه المهمة؛ فيذكر أنه من بين النفقات التي كانت تلزم هؤلاء الحجاج هناك ١٠ دوكات عن كل شخص كانت تخصص للترجمان المرافق لهم، وأن هذا المبلغ كان يصبح ٨ أو ٩ دوكات فقط في حالة تجاوز عدد الحجاج لعشرة أشخاص. بالإضافة إلى ذلك فقد كان هناك مبلغ آخر يخصص للترجمان في كل يوم قيمته ٦ جروس *gros*، وذلك نظير طعامه وأجرة الحصان الذي يمتطيه. هذا فضلا عن منحه دوكتين من الحجاج مجتمعين عند الوصول إلى سانت كاترين، "وذلك من قبيل المجاملة والتودد" [٤٠]. وعلى ذلك يكون إجمالي ما يتحصل عليه الترجمان (في حالة ما كان عدد الحجاج يبلغ عشرة ومدة الرحلة ٩ أيام كما قدرها أنجلور وجيستل) هو ٩٤ دوكة تقريبا، وهو مبلغ ضخم وكبير، خاصة إذا ما علمنا أن النفقة الإجمالية التي كان يتحملها كل حاج خلال الرحلة كاملة كانت تتراوح ما بين ٤٠ و٤٣ دوكة[٤١].

أما الرحالة البلجيكي فان برشيم- الذي قام برحلة الحج عام ٨٩٩هـ/١٤٩٤م- فيذكر كذلك أنه ورفقاءه بعدما انهوا زيارتهم لمدينة القدس قرروا الذهاب إلى دير سانت كاترين ومن هناك إلى القاهرة، وأن تلك الرحلة قد كلفتهم ١٢٩ دوكة تحصل عليها حاكم يافا، وذلك نظير توفير أحد التراجمة الذي كان يتقن اللغة اللومباردية لمرافقتهم في الرحلة، بالإضافة إلى تزويدهم بتسعة بغال يركبون عليها ويحملون عليها أغراضهم، فضلا عن تجهيز عشرة فرسان مسلحين لحماية هؤلاء الحجاج حتى القاهرة. كما قام هذا الحاكم بإعطائهم خطابات "صكوك أمان" لمساعدتهم على التغلب على الصعوبات التي قد تعترضهم في الطريق. إلا أن هذا الرحالة يشير إلى أنه بالرغم من عقد هذا الاتفاق "فإن الترجمان قد خذلهم"؛ فبالقرب من مدينة الرملة تخلى عنهم ثمانية فرسان من العشرة المرافقين لهم "ولم يحرك الترجمان ساكنا" [٤٢].

وفي بعض الأحيان كانت مراسلات الحجاج تتم مع الترجمان الأكبر بالقدس والمعين مباشرة من قبل السلطان المملوكي، هذا الأمر قد حدث مع برتراندون دي لابروكيير الذي قرر الخروج مع عشرة من الحجاج باتجاه سانت كاترين، فتواصلوا بداية مع هذا الترجمان الذي يدعى ناصر الدين Nanchardin، واتفقوا معه على إجمالي المبلغ الذي سيأخذه لنفسه، بالإضافة إلى الضريبة التي تخص السلطان. ثم يذكر لابروكيير أنه بعدما تم الاتفاق فيما بينهم، قام ناصر الدين مباشرة بمراسلة "ترجمان غزة" كي يتفق مع البدو الذين كانوا سيحملون هؤلاء الحجاج على ظهور دوابهم إلى سيناء [٤٣]. وبعدما تزود الحجاج بما يحتاجونه من مؤن من أسواق مدينة القدس، وقاموا بوضعها على ظهور الحمير، اختار ناصر الدين واحدا من التراجمة التابعين له- يدعى سعد الله Sadalia- وعهد إليه بمرافقة هؤلاء الأوربيين في رحلتهم[٤٤].

جدير بالذكر أنه قبل انطلاق الحجاج المسيحيين باتجاه غزة فإن الترجمان الكبير بالقدس كان يجتمع بهم لأخذ بعض البيانات التي تتعلق بأسمائهم وألقابهم وأعمارهم، إلى جانب بعض المعلومات الجسدية كالطول والشكل، ثم يقوم بتدوين كل هذه المعلومات في صحيفة، ويرسل نسخة منها إلى كبير التراجمة بالقاهرة. ويذكر برتراندون أن جميع هذه المعلومات التي تم إرسالها إلى بلاط السلطان إما كانت تعود إلى "أخذ إجراءات الأمان والاحتياط" من أجل الحفاظ على حياة هؤلاء الحجاج من خيانة أو اعتداء العربان عليهم، أو السبب الآخر- الذي يراه هذا الرحالة أنه الأقرب للتصديق- يكمن في رغبة السلطة المملوكية في التثبت من الحصول على الضرائب التي ستفرض على الحجاج "بدون أي نقصان أو تغيير" [٤٥].

وبحسب معظم روايات الحجاج الأوربيين فإن مهمة ترجمان القدس غالبا ما كانت تنتهي بوصوله إلى غزة، حيث ينتقل الإشراف على الحجاج من الآن فصاعدا لأحد تراجمة غزة، وقد كان هذا الأمر فيه هضم لحقوق هؤلاء الحجاج، الذين كانوا غالبا ما يسددون لترجمان القدس مبلغا يشمل الرحلة كاملة حتى القاهرة. فيذكر لنا أحد الحجاج الفرنسيين أنهم لما وصلوا إلى غزة رفقة الترجمان حامد استقبلهم ترجمان آخر من هذه المدينة، وأصبح هو دليلهم المرافق لهم، وهو الذي وفر لهم مكان الإقامة. وإن كان هذا الحاج يصف لنا المعاناة التي وجدوها في هذا النزل، الذي كان بلا سقف يستظلون به من "حرارة الشمس المحرقة" [٤٦]. كما أن فابري وبقية الحجاج اشتكوا كذلك من تلك الحجرات الصغيرة التي كانت مخصصة لاستقبالهم في غزة، لذلك فإنهم ألزموا الترجمان المسئول عنهم بتغيير مكان الإقامة إلى فندق أكثر سعة ورحابة. ورغم استجابة الترجمان لهم ونقلهم إلى نزل آخر فإن معاناة هؤلاء الحجاج ظلت مستمرة، لأن النزل كان بلا سقف، وهو الأمر الذي جعلهم "يقضون الليل والنهار في الهواء الطلق" [٤٧]. ومن بين

الضرائب التي كان يقوم الترجمان بدفعها عن الحجاج المرافقين له في غزة مبلغ نصف دوكة عن كل واحد منهم، وذلك نظير النزل- أو بالأحرى "الكوخ الوضيع" كما يقول أحد الحجاج- الذي كانوا يقيمون فيه داخل المدينة [٤٨].

ويعد حمام غزة من أهم الأماكن التي كان يتردد عليها الحجاج صحبة الترجمان أثناء فترة إقامتهم في المدينة، وقد انبهر فابري بجمال تلك البناية قائلا "إنه لم ير طوال حياته مثيلا له في أي مكان آخر"، وإنه كانت يتميز بالجمال والفخامة؛ فكل شيء فيه كان مغطى بالرخام الأبيض المصقول "الذي يشبه الثلج"، كما أنه بتوصية من الترجمان كالين فإن فابري ومن معه وجدوا عناية واهتماما من قبل المسئولين عن هذا الحمام، الذي كان مخصصا للرجال المسلمين والمسيحيين، بينما كان ممنوعا على النساء واليهود [٤٩].

وقد كان من مهام تراجمة غزة كذلك حث الحجاج المرافقين لهم على التزود بكل ما يحتاجونه من سلع وأغذية، خاصة وأنهم بعد مغادرتهم لغزة، وأثناء عبورهم للصحراء القاحلة الفاصلة بين هذه المدينة وبين البلاد المصرية، فإنهم لن يمروا بمكان آخر مأهول يستطيعون التزود من خلاله بما يحتاجونه، علما بأن الفترة الزمنية التي سيمضونها في هذه الرحلة الصحراوية كانت تصل إلى تسعة أيام [٥٠]. وفي الحقيقة كانت تلك الرحلة محفوفة بكثير من المخاطر، وتمثل قلقا كبيرا بالنسبة للحجاج الأوربيين؛ فالأمر لا يقتصر على طول الطريق وندرة الأغذية والمياه العذبة، وإنما كان العربان أنفسهم- الذين سيتكفلون بنقل هؤلاء الحجاج- يمثلون خطرا كبيرا، فهم- كما يقول برتراندون- كانوا يخرجون أحيانا على السلطان المملوكي نفسه ولا يطيعون أوامره، "من هنا فإن اتفاق التراجمة معهم مبكرا كان ضروريا لإتمام الرحلة بسلام، ولتجنب إلحاق أي ضرر بالحجاج" [٥١].

وثمة ملاحظة يذكرها جيستل تتعلق بأسماء المدن والقرى التي كان يمر بها الحجاج خلال رحلتهم الصحراوية من غزة للقاهرة؛ فبعد إشارته لعدد من تلك المدن- مثل *Gayon* و*Magare* و*Mesmar*- يقول إن أسماء هذه المناطق هي في الحقيقة "من اختراع" التراجمة والمكارية [٥٢] الذين كانوا مرافقين للحجاج؛ إذ إن معظمهم لم يكن على دراية بالأسماء الحقيقية لتلك القرى. لذلك يقول جيستل إنه من بين العدد الكبير من الحجاج الذين قاموا بوصف وتدوين خط سير رحلاتهم- وبصفة خاصة الطريق المؤدي إلى دير سانت كاترين أو إلى القاهرة- قليل هم أولئك الذين قاموا بتسجيل أسماء مطابقة للواقع بالنسبة للمدن والقرى التي مروا بها [٥٣].

والواقع أن الترجمان المرافق للحجاج في رحلتهم من غزة إلى دير سانت كاترين ثم بعد ذلك إلى القاهرة كان ملزما بأن يقدم- بعد انتهاء الرحلة- تقريرا إلى السلطان المملوكي بالقاهرة، وتقريرا آخر إلى ترجمان القدس، يعرض فيه جميع أحداث الرحلة، كما أنه كان مسئولا مسئولية كاملة عن سلامة هؤلاء الحجاج، الذين- من جانبهم- يجب أن يلتزموا بالسمع والطاعة لهذا الترجمان طوال فترة الرحلة [٥٤]. لذلك وجدنا الترجمان كالين الصغير- كما يروي فابري- عندما خالف عدد من الحجاج أوامره- وهم بالقرب من الطور [٥٥]- وتركوا القافلة متوجهين إلى ساحل البحر الأحمر، أمرهم الترجمان بداية بالتخلي عن تلك الفكرة، فلما فارقوه أشهد عليهم بقية الحجاج وأصحاب الجمال بأنه بريء مما قد يحدث لهم من أذى أثناء تلك المغامرة، وأنه سيطلب منهم شهادتهم عند وصولهم إلى بلاط السلطان المملوكي [٥٦].

فضلا عن ذلك فإنه كان من المعتاد- كما يذكر الحاج المسيحي ميربل- عند وصول الحجاج إلى القاهرة أن يقوم كبير التراجمة بسؤال الحجاج عن أحداث رحلتهم من بيت المقدس إلى القاهرة مرورا بدير سانت كاترين، وإن كانت هناك أي شكوى منهم ضد

التراجمة، أو أصحاب الجمال والحمير المرافقين لهم والمسئولين عنهم. وفي حالة وجود أي شكوى ضد أحد منهم فإن المذنب كان يتعرض "لخلع ملابسه وضربه بالسياط". إلا أن هذا الرحالة يشير إلى أن تلك الإجراءات وإن كان ظاهرها يدل على اهتمام وعناية بالحجاج المسيحيين، إلا أن الهدف الحقيقي منها هو المحافظة على تدفق واستمرار رحلات الحجاج المسيحيين، التي كانت تمثل مصدر دخل مهم للسلطات المملوكية [٥٧].

وبوصول الحجاج إلى المطرية تنتهي مهمة التراجمة المرافقين لهم من بيت المقدس وغزة، الذين لم يكن مسموحا لهم بتجاوز هذه المنطقة، لذلك كانوا يعودون مرة أخرى إلى بلاد الشام، ومن هذه اللحظة تبدأ مرحلة "كبير التراجمة" ومن يساعده من تراجمة القاهرة كأدلاء ومرشدين للحجاج الأوربيين [٥٨].

وقوف تراجمة الشام مع الحجاج في وقت الأزمات وإسداء النصائح لهم: يروي لنا الحجاج العديد من المواقف التي أظهرت الدور المهم الذي لعبه تراجمة الشام في الوقوف إلى جانبهم عند التعرض لبعض المواقف الصعبة، فضلا عن النصائح التي كانوا يسدونها إليهم لإتمام رحلتهم بسلام؛ وفي هذا السياق يذكر أحد الحجاج الفرنسيين أنهم كانوا قد تعرضوا لظلم رجل يسمى "فخر الدين"، الذي كان في الأصل معينا من قبل السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م) [٥٩] لرعاية مصالح الحجاج القادمين لزيارة أماكنهم المقدسة ببلاد الشام، وكانت قد جرت العادة أن يأخذ فخر الدين ضريبة قيمتها ٥ دوكات عن كل سفينة تصل إلى السواحل الشامية وعلى متنها حجاج مسيحيين، إلا أنه عند وصول هؤلاء الحجاج الفرنسيين إلى ميناء يافا عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م كان فخر الدين في القاهرة لمقابلة السلطان. وبمجرد عودته أخذ يطالب الحجاج بتلك الضريبة، لكنهم رفضوا هذا الأمر محتجين بأن الضريبة يجب أن تؤخذ من البنادقة، وهم أصحاب السفينة التي أتوا عليها، ولما كانت هذه السفينة قد غادرت الساحل فعليه الانتظار للعام

المقبل ليأخذ من أصحابها الضريبة المقررة. ورغم حالة الغضب التي كان عليها فخر الدين، وعبارات الوعيد والتهديد التي وجهها للحجاج، إلا أن تدخل التراجمة المرافقين لهؤلاء الأوربيين- بالإضافة إلى طائفة الرهبان الفرنسيسكان [٦٠] المقيمين بالقدس- جعل فخر الدين يتخلى عن تلك المطالبة، ويقتنع بأن حقه مع البحارة البنادقة [٦١].

من ناحية أخرى يذكر برتراندون أنه قد تم القبض عليه في مدينة دمشق [٦٢]، ووضع في السجن رفقة التجار الجنويين والكتالونيين، وسبب ذلك- كما يروي هو- قيام بعض القراصنة من هاتين المدينتين بالإغارة على إحدى السفن الإسلامية بالقرب من ساحل بيروت، فما كان من السلطان إلا أن أصدر أوامره بإيقاع الحوطة على ممتلكات وبضائع جميع تجار هاتين المدينتين، ولما كان هذا الرحالة مقيما آنذاك في فندق الجنويين بدمشق، فإنه تم إلقاء القبض عليه، ولم يخلصه من السجن إلا شهادة أحد التراجمة، الذي كان قد رافقه في إحدى رحلاته السابقة [٦٣].

وأشاد بومجارتن بالنصيحة التي أسداها إليهم الترجمان المرافق لهم بغزة؛ إذ إنه أشار عليهم بشراء ملابس كتلك التي يرتديها السكان المسلمون، فهذا الأمر "سيجعلهم يظهرون وكأنهم مسلمون"، مما سيسهل كثيرا من حركتهم داخل المدينة، ويبعد عنهم أي أذى أو سوء تصرف من قبل هؤلاء السكان، فاستجاب بومجارتن وأصحابه لهذه النصيحة [٦٤].
كما يبدو من حديث فابري أن الترجمان كالين الصغير Petit Calin- المرافق لهم في الرحلة من غزة إلى سيناء- قد ترك انطباعا طيبا لدى الحجاج أزال به الانطباع السيء الذي خلفه كالين الكبير Grand Calin؛ ويصفه فابري بأنه رجل مسن، ولديه خبرة كبيرة في الرحلات عبر الصحراء؛ فقد رافق الحجاج في أكثر من أربعين رحلة من غزة إلى سانت كاترين، كما أن هذا المترجم كانت لديه القدرة على التحدث باللغة الإيطالية بمهارة وطلاقة- التي كان قد تعلمها خلال رحلاته إلى البندقية وروما-، بالإضافة لإتقانه للغة

الألمانية، التي اكتسبها من الحجاج الألمان الذين كان يرافقهم في رحلاتهم داخل مصر وبلاد الشام [٦٥]. ويؤكد فابري أن هذا الترجمان لم يأل جهدا في تقديم المساعدات والنصح لهؤلاء الأوربيين أثناء تلك الرحلة الصحراوية الصعبة والخطيرة؛ من ذلك أنهم لما وصلوا إلى منطقة تسمى *Gayan* نصحهم الترجمان بضرورة اختيار واحد منهم ليقوم بأعمال الحراسة والمراقبة ليلا، خاصة وأن هذه المنطقة لم تكن آمنة، ويضيف فابري أنهم واظبوا على هذا الأمر طيلة فترة هذه الرحلة [٦٦]. كما أن كالين الصغير كان يصبر الحجاج في الأوقات الصعبة التي كانوا يمرون بها آنذاك؛ من ذلك معاناتهم من ندرة المياه العذبة[٦٧].

ويروي لنا فابري موقفا آخر يظهر الدور الكبير الذي لعبه هذا الترجمان في الدفاع عن الحجاج وتجنيبهم التعرض لعقوبات السلطات؛ إذ إن قافة الحجاج لما كانت بالقرب من الطور خرج عليهم أحد المماليك– الذي كان يقوم بتمشيط تلك المنطقة التي يقع فيها ميناء الطور التجاري– وهو يمتطي جملا ومعه عدد من الجنود على أربعة جمال، فلما رأى المملوك الحجاج وهم يحملون معهم بعض السيوف والأقواس ظهر على وجهه علامات الغضب، وقام بإحضار الترجمان كالين "واستنكر عليه السماح لهؤلاء الغرباء بحمل السيوف والدروع داخل أراضي مولانا السلطان"، وسأله "هؤلاء يريدون مهاجمة من بهذه السيوف؟"، ولم تهدأ ثورة هذا المملوك إلا بعدما أخبره الترجمان بأن هؤلاء الحجاج مسالمون، وقد أتوا من أماكن بعيدة لزيارة مقدساتهم، وهم يحملون معهم "صكوك مرور" من حكام بيت المقدس والرملة وغزة، وأن هذه الأدوات الحربية البسيطة والقليلة التي يحملونها إنما هي للدفاع بها عن أنفسهم ضد هجمات اللصوص والخارجين على سلطة الدولة. فلما سمع المملوك هذا الحديث من الترجمان تفهم الأمر، وسمح لهم بالمرور، "وحمّل الترجمان بنقل تحياته لهؤلاء الحجاج" [٦٨].

من ناحية أخرى، كان الحجاج يلجؤون للترجمان عند فقدان أي شيء من متعلقاتهم الشخصية أثناء الرحلة؛ إذ إنه لما فقد أحد الحجاج الألمان المرافقين لفابري- ويدعى برنارت بريتنباخ- حقيبته التي كانت تحتوي على مبلغ كبير من المال (٣٠٠ دوكة) أبلغ الترجمان كالين بالأمر، فقام هذا الأخير بإيقاف القافلة وأعلمهم بالأموال المفقودة، وأن من يعثر عليها ويعيدها لبرنارت سيحصل على مبلغ معتبر "كهدية على جهده وأمانته" [٦٩]. ولعل حسن المعاملة التي وجدها فابري والحجاج المرافقين له من طرف الترجمان "كالين الصغير" جعلتهم يحزنون كثيرا على فراقه بعدما وصلوا للقاهرة، وأنهم كانوا يمنون النفس بأن يرافقهم في رحلتهم إلى الإسكندرية. ويذكر هذا الحاج أن كالين "رغم كونه مسلما" إلا إنه اتصف بالصدق والأمانة والنصح لهم طيلة فترة مرافقته لهم، لذلك فإنه عندما قرر الرحيل "سالت دموع بعض الحجاج المسيحيين على مفارقته، فقد كان بالنسبة لهم مثل الأب، وبرحيله أصبحوا محرومين من هذا الأب" [٧٠].

مهما يكن من أمر، فإن التراجمة كانوا يقفون أحيانا عاجزين عن تقديم يد العون للحجاج المسيحيين أمام بعض الأطماع والمظالم التي كانت تصدر عن عدد من الولاة والموظفين تجاه الحجاج المسيحيين؛ من ذلك ما يذكره أحد الرحالة الفرنسيين عن قيام حاكم غزة- الذي كان يريد صنع شيء من الذهب- بإلزام هؤلاء الحجاج بحمل ١٠ دوكات من كل واحد منهم، وفي المقابل فإنه سيعوضهم قيمتها بالعملة المحلية التي تسمى *مدين* *médines* [٧١]. وقد ترتب على هذا الأمر الحاق الخسارة بالحجاج؛ إذ إن الدوكة الواحدة كانت تساوي ٢٧ *مدين*، في حين أن هذا الحاكم عوضهم بست وعشرين فقط، وفوق ذلك- كما يقول الرحالة- كانت معظم تلك العملة مغشوشة ومزيفة. والواقع أن الترجمان حامد هو من أبلغهم بهذا الأمر، ونصحهم بالذهاب للحاكم والاستجابة لطلبه. وربما أنه كان يعلم مدى الضرر الذي سيلحق بهم في حالة عدم الموافقة على

هذا الطلب، لذلك نرى الرحالة يقول "قمنا كلنا بإعطائه ما طلب منا، خوفا وخشية منه. بل إن العديد منا منحه ست عشرة دوكة بدلا من عشر" [٧٢].

شكوى الحجاج من سوء معاملة تراجمة القدس وغزة: رغم أن العديد من الحجاج قد أشادوا بحسن معاملة التراجمة في بلاد الشام، والخدمات العديد التي قدموها لهم، والصعاب التي ذللوها لهم، إلا أن الأمر لم يخل بطبيعة الحال من بعض المضايقات والتعسف الذي كان يصدر أحيانا من هؤلاء التراجمة تجاه هؤلاء المسيحيين. من ذلك ما يذكره أحد الحجاج الفرنسيين من أنهم وهم في طريقهم من القدس إلى غزة "لم يتوقف الترجمان عن طلب الأموال منا، زيادة عن القيمة التي كنا قد اتفقنا معه عليها"، ويضيف بأن "شهرة هذا الرجل كشخصية لها احترامها جعلتنا نعطيه ما يطلبه، معتقدين أن هذا الأمر كان واجبا علينا" [٧٣]. كما أن الترجمان خالف شروط الاتفاق عندما تركهم في غزة ولم يسر معهم إلى سيناء؛ فبعدما استعد الحجاج للمغادرة وتم تجهيز الإبل التي ستقلهم خلال الرحلة، ما كان من هذا الترجمان إلا أن اعتذر لهم عن مواصلة الرحلة، وأخبرهم بأنه كلف ترجمانا آخر– يسمى خليفة Callif– بإتمام المهمة والخروج معهم. ورغم اعتراض الحجاج ومحاولتهم إقناعه بالوفاء بما اتفقوا عليه سابقا، إلا أنه غادرهم وتركهم– كما يقول هذا الرحالة– "بين يدي خليفة الترجمان العجوز السارق"، ولم يجرؤوا على معاتبته بكلمة واحدة "خشية أن يستثيروا غضبه" [٧٤].

كما أن هذا الحاج نفسه يحدثنا عن سوء معاملة ترجمان غزة لهم، بداية من النزل السيء الذي أسكنهم فيه، مرورا بحالة التعنت التي وجدوها منه، بحيث إنه "جعلهم خاضعين لرحمته"، ولم يسمح لهم بمغادرة المسكن بمفردهم لشراء ما يحتاجونه من أغذية، كما أنه رفض قدوم أي شخص لمساعدتهم. وقد أرجع الرحالة هذا الأمر إلى رغبة الترجمان في أن يجلب لهم هذه الاحتياجات بنفسه، وهو الأمر الذي كان سيحقق له كثيرا

من الأموال؛ حيث إن السلعة التي كان لا يتعدى ثمنها درهما واحدا كان يبيعها لهم بثلاثة دراهم. ثم يذكر لنا هذا الحاج موقفا آخر يظهر جشع التراجمة الذين كانوا مسئولين عنهم في غزة؛ فقد كان هؤلاء الأوربيون يقومون بشراء الماء من بعض "الشباب المسلمين" مقابل إعطائهم نصف *مدين* *demi–médine*، فما كان من التراجمة إلا أن قاموا بمنع هؤلاء الشباب من حمل المياه إليهم، وتعهدوا هم بجلب المياه لهم، وذلك مقابل الحصول على *مدين* كاملة (أي ضعف الثمن) [٧٥]. ولعل سوء المعاملة التي وجدها هؤلاء الحجاج في غزة من طرف واليها ومن طرف التراجمة الذين كانوا مصاحبين لهم جعلت هذا الرحالة ينصح الحجاج الأوربيين بعدم المرور بهذه المدينة، ومحاولة تجاوزها قدر الإمكان وهم في طريقهم إلى سيناء [٧٦]. من جهته، ونتيجة للمضايقات التي تعرض لها هو وبقية رفقته من الحجاج عند وصولهم إلى ميناء يافا– عام ٨٩٩هـ/١٤٩٤م– نرى كازولا يقول: "كل من يذهب إلى كنيسة القيامة (بالقدس) يحتاج إلى ثلاثة أكياس؛ كيس صبر وكيس من المال وكيس إيمان، وقد قمت باستخدام الكيسين الأولين عدة مرات حتى تلك الساعة، والثالث لا يزال على حاله" [٧٧].

أما بالنسبة للرحالة الشهير فليكس فابري– صاحب التجربة الكبيرة في التعامل مع التراجمة سواء في بلاد الشام أو في مصر– فيذكر لنا أن الترجمان الذي كان مرافقا له ولصحبته من الحجاج في بيت المقدس والمتوجه بهم إلى غزة ثم البلاد المصرية كان يسمى كالين الكبير، الذي يصفه فابري "بالكاذب والمخادع"؛ إذ إنه وعدهم– بعد مكوثهم في غزة لمدة أربعة أيام– بأن يتواصل مع العربان البدو ليجهز لهم الجمال والدواب التي ستنقلهم عبر الصحراء من غزة إلى مصر، وعندما تجهز الحجاج وقاموا بشراء جميع ما يلزمهم أثناء الرحلة إذا بهذا الترجمان– كما يقول فابري– يحنث في وعده، ويخبرهم في المساء بتأجيل الرحلة، لعدم نجاحه في توفير هذه الجمال. ولا شك أن هذا الأمر قد أوجد

خيبة أمل لدى الحجاج، الذين عانوا كثيرا– صحيا وماديا– من طول فترة مكوثهم بغزة [٧٨]. والواقع أن فابري ومن معه كان لديهم انطباع سيء عن الترجمان كالين؛ حيث كانوا يعتقدون– من فرط طمعه– "أنه يتمنى موت واحد من هؤلاء الحجاج ليستحوذ على أمواله" [٧٩]. بالإضافة إلى ما سبق فإن كالين الكبير هذا لم يرغب في مرافقة الحجاج إلى سيناء، وإنما ترك هذه المهمة إلى ترجمان آخر هو كالين الصغير كما ذكر آنفا [٨٠].

من جانبه يذكر فان برشيم أنهم تعرضوا للخداع من قبل حاكم غزة، الذي أجبرهم على دفع مبلغ ٤٠ دوكة مقابل أن يوفر لهم أحد التراجمة لمرافقتهم في رحلتهم عبر الصحراء، كما أشار هذا الحاج كذلك إلى طمع هذا الترجمان وخداعه لهم طوال هذه الرحلة [٨١]. أما لنجراند فيقول إن الترجمان الذي رافقهم من القدس إلى غزة تركهم في هذه المدينة، وعهد بهم إلى ترجمان آخر يسمى Calix، ورغم أن بنود العقد المبرم بين الحجاج وبين ترجمان القدس كانت تلزم هذا الأخير بتحمل جميع نفقات الرحلة حتى سانت كاترين، إلا أن ترجمان غزة تنصل من شروط هذا العقد، قائلا "إنه غير ملزم بالوفاء بعقد لم يبرمه معهم"، وأجبرهم على تحمل النفقات، وفي مقدمتها استئجار الدواب التي كانت ستقطع بهم تلك الرحلة [٨٢].

٢. كبير التراجمة في البلاط السلطاني بالقاهرة

بوصول الحجاج الأوربيين إلى البلاد المصرية كانت تنتهي مهمة التراجمة الشاميين وتبدأ مهمة كبار التراجمة، أصحاب المكانة والنفوذ الكبير في البلاط السلطاني، والمسئولين عن جميع المسيحيين الأوربيين الوافدين إلى الديار المصرية. يذكر لنجراند أن التراجمة كانوا ملازمين لبلاط السلطان المملوكي، خاصة عند قدوم الحجاج أو السفراء الأجانب أو غيرهم من الشخصيات لزيارة السلطان، فقد كان هؤلاء التراجمة يسمعون من الزائرين ثم ينقلون الحديث لسلطانهم مترجما بالعربية [٨٣]. كما أشار سيميوني إلى أن

السلطان كان لديه ثلاثة مترجمين؛ أكبرهم سنا– وهو رئيسهم– كان روماني المولد والعقيدة، ويسمى Asselin، وكان ينتمي قبل إسلامه إلى طائفة الرهبان الفرنسيسكان. أما الآخران فكانا أصغر سنا، وهما إيطاليو الأصل، وكانا قبل إسلامهما من المسيحيين اليعاقبة [٨٤]. ويقول سيميوني أنه وجد عطفا ورعاية وحسن معاملة من جانب هؤلاء التراجمة، إلى جانب المساعدات القيمة التي قدموها للحجاج[٨٥].

والشيء الجدير بالملاحظة هنا هو أن معظم الحجاج كثيرا ما كانوا يشيرون إلى أن هؤلاء التراجمة وإن كانوا قد تحولوا من المسيحية إلى الإسلام، فإن قلوبهم ظلت متعلقة بالمسيحية والمسيحيين؛ فها هو سيميوني يذكر أن التراجمة الذين كانوا في البلاط السلطاني كانوا مسيحيين ثم تحولوا للإسلام عند وصولهم لأراضي السلطان، لكن بالرغم من ذلك "فإنهم كانوا يعتقدون في قلوبهم أن المسيح (عليه السلام) هو الإله الحق، وهو مخلص البشرية، وأن هؤلاء التراجمة كانوا "مسلمين بألسنتهم لكن قلوبهم ما زالت متعلقة بالمسيحية التي تحولوا عنها" [٨٦]. كما أن ميربل يقول إن كبير التراجمة شاهين كان يدين بالمسيحية قبل دخوله في الإسلام [٨٧]. ويذكر بومجارتن أن ارتباط كبير التراجمة بالإسلام إنما هو ارتباط ظاهري، وأنه ما زال محبا للمسيحية والمسيحيين، لذلك فإنه كان يحسن للحجاج ويكرم وفادتهم، ولعل تلك "العلاقات الأخوية" التي ربطت بين الطرفين هي التي جعلت الترجمان يسمح لزوجاته بمخالطة هؤلاء الحجاج والجلوس معهم [٨٨]. أما بريدنباخ فإنه رغم إشادته بالمعاملة الطيبة وحسن الضيافة التي أظهرها لهم كبير التراجمة، إلا أنه وجه إليه سهام النقد والتجريح بسبب تحوله للإسلام، بعدما كان في البداية يهوديا ثم مسيحيا [٨٩]. ويضيف هذا الحاج أن الترجمان قذ ذكر لهم أكثر من مرة بأنه "يريد التكفير عن خيانته بدخوله في الإسلام، ويود العودة للمسيحية". بل إن الشطط يذهب بهذا الرحالة إلى أبعد من ذلك؛ حيث يذكر أن هؤلاء المماليك– الذين ما زالوا يحملون في قلوبهم حب

المسيح- من سلطان وجنود وحاشية هم من يحمون المسيحيين ويسمحون لهم بالقدوم لزيارة الأماكن المسيحية المقدسة، "وأنه لو كان يحكم هذه البلاد المسلمون *sarrasins* المتعصبون لما سمحوا للمسيحيين اللاتين بزيارة هذه الأماكن" [٩٠].

ويتبين لنا كذلك من روايات الحجاج المكانة الاجتماعية المرموقة التي كان يتبوأها "كبار التراجمة" داخل المجتمع المصري في ذلك الوقت، وذلك بسبب الأموال الضخمة التي كانوا يمتلكونها؛ فقد أشار سيميوني إلى حالة الثراء واليسار التي كان عليها هؤلاء التراجمة، والمنزلة الكبيرة التي كانوا يتبوأونها لدى السلطان، مضيفا "أنهم كانوا يعيشون كالأمراء"، وكانوا يمتلكون الذهب والفضة والأحجار الكريمة، كما أنهم كانوا يرتدون الملابس الفخمة المصنوعة من الحرير والمطرزة بالذهب، "وبصفة عامة كانوا يمتلكون كل مظاهر الفخامة والثراء" [٩١]. كما أن فابري يذكر أن وظيفة الترجمان كانت من الوظائف المهمة وذات الشأن الكبير، لذلك فقد كانت تدر على صاحبها كثيرا من الأموال[٩٢].

والواقع أن كبير التراجمة بالقاهرة كانت له سلطة كبيرة على جميع المسيحيين الوافدين إلى مصر؛ فبدون إذن وتصريح منه لا يمكن لأحد من الحجاج الغربيين الدخول إلى مدينة القاهرة، لذلك فإن جميع الحجاج الذين كانوا يصلون من دير سانت كاترين إلى المطرية كان يلزمهم بداية مراسلة كبير التراجمة لأخذ الإذن بالدخول للعاصمة المصرية [٩٣]. فيروي لنا أحد الحجاج الفرنسيين أنهم بمجرد وصولهم إلى منطقة المطرية قام كبير تراجمة السلطان بإرسال أحد المماليك لاصطحابهم أولا لزيارة "حديقة البلسان المقدس"، ثم بعد الانتهاء من تلك الزيارة قام هذا المملوك بمرافقتهم إلى داخل القاهرة [٩٤]. هذا الأمر أشار إليه كذلك لنجراند، قائلا إنهم ظلوا طوال اليوم في المطرية منتظرين قدوم أحد نواب كبير التراجمة للدخول بهم إلى القاهرة. وفي مساء ذلك اليوم وصل إليهم أحد مماليك

الترجمان يسمى Cargent– الذي تعود أصوله إلى مدينة قشتالة الإسبانية– وأخبرهم بأنهم سيتحركون في اليوم التالي إلى القاهرة، وأمر بتجهيز الجمال التي ستحمل هؤلاء الحجاج وأمتعتهم [٩٥].

كما أنه في بعض الأحيان كان كبير التراجمة يأتي بنفسه إلى المطرية لاصطحاب الحجاج، كما حدث مع فابري ورفقائه، ويذكر هذا الرحالة أنهم طلبوا من كبير التراجمة– ويسمى تغري بردي– أن يؤخر مجيئه لليوم التالي؛ لأنهم يريدون الإقامة لبعض الوقت في المطرية للتمتع بحديقتها ومزاراتها [٩٦]. وهذا الأمر حدث كذلك مع ميربل، الذي يذكر أن كبير التراجمة– يسمى السيد شاهين Messire Sahin– قدم إليهم صحبة أحد التجار الجنويين– يسمى Messire Luc– الذي فيما يبدو كان مكلفا بتجهيز المسكن الذي سيقيم فيه الحجاج أثناء مدة إقامتهم في القاهرة [٩٧]. كما يذكر بريدنباخ أن الترجمان الكبير أتى بنفسه لاستقبالهم، وبصحبته حامية كبيرة من الجنود [٩٨].

والواقع أن الحجاج أشادوا كثيرا بالجمال والازدهار الذي كانت عليه المطرية، والأهمية التي كانت تمثلها للسلطات المملوكية، نظرا لإنتاجها للبلسان الشهير، كما أنها كانت تمثل مزارا دينيا مهما للحجاج المسيحيين، نظرا لأن المسيح عليه السلام وأمه قد مروا بهذا المكان [٩٩]. من جانبه يذكر بريدنباخ أن الطريق من المطرية إلى القاهرة كان مليئا بالحدائق والأشجار المختلفة، كما يوجد بها "القصور الفخمة التي تشبه القلاع". وقد كانت تلك الحدائق والقصور تمتد بلا انقطاع حتى القاهرة، "بحيث إن المطرية والقاهرة تبدوان كأنهما مدينة واحدة". كما أنه يصفها "بالمكان الساحر" الذي يشتمل على الأراضي الخصبة والحدائق الغناء [١٠٠]. لذلك كان الحجاج– كما يروي فابري– يلتمسون من كبير التراجمة أن يسمح لهم بالدخول إلى "حديقة البلسان"– وهو أمر كان ممنوعا على هؤلاء المسيحين– ووعدوه بإعطائه مبلغا كبيرا من المال في حال تحقيق رغبتهم، وقد وافق

تغري بردي على طلبهم، "وأدخلهم من أحد الأبواب الصغيرة لهذه الحديقة". كما أن الترجمان سمح لهم كذلك بأن يتذوقوا من ثمار التين الفرعوني *figues de pharaon* (الجميز)، الذي تنتشر أشجاره بكثرة في هذا المكان [١٠١]. ويضيف بريدنباخ أننا لما دخلنا حديقة البلسان كان تغري بردي يتقدمنا، وأخذ يشرح لنا جمال وروعة هذا النبات، "الذي كنا نقرأ ونسمع عنه منذ وقت طويل في بلادنا"، ثم قام بأخذ غصن صغير من هذه النبتة بين أصابعه وقام بتعريضها لأشعة الشمس، ثم قام بثنيها "على هيئة دائرة" حتى كسر اللحاء، فسالت منها قطرات شفافة وسميكة كالزيت، وفي لحظات قليلة كانت الرائحة العبقة تملأ المكان كله، "إنه البلسان الأكثر نقاء وصفاء" [١٠٢].

من ناحية أخرى، يبدو من روايات الحجاج القادمين إلى القاهرة أنهم كانوا يقيمون في منزل يخصصه لهم كبير التراجمة؛ فيذكر لنجراند أن الترجمان المسئول عنهم والمقيمين عنده يسمى Gavardin. ويضيف أن هذا الترجمان أخذ من كل واحد منهم ٥ دوكات (وهي قيمة الضريبة المفروضة عليهم عند وصولهم للقاهرة)، هذا بالإضافة إلى تحمل الحجاج نفقات الزيارات التي كانوا سيقومون بها في المدينة، من ذلك ٥ *مدين* عن كل دابة، و٣ *مدين* من كل حاج تدفع لصاحب المركب التي كانت ستعبر بهم إلى الجهة الأخرى من النيل، كما أن الجنود المماليك الذين يرسلهم الترجمان مع الحجاج لحمايتهم كان يأخذ كل واحد منهم نصف دوكة و٣ مدين [١٠٣]. كما أن بريدنباخ يذكر أنه وبقية الحجاج أقاموا أول ليلة وصلوا فيها للقاهرة في منزل كبير التراجمة، ثم في صباح اليوم التالي قام هذا الترجمان بتأجير حجرة لكل واحد منهم، ووضعوا متعلقاتهم فيها [١٠٤]. أما جيستل فيقول إنه بالرغم من نزولهم في البداية في ضيافة أحد تجار الفلاندر المقيمين بالقاهرة– الذي كان يعمل في تجارة الكريستال كما أنه كان مقربا من السلطان قايتباي– إلا أن كبير التراجمة تغري بردي لما علم بوصول هؤلاء الحجاج أتى إليهم، وطلب منهم

أن يذهبوا معه لمنزله، ثم قام بسؤالهم عن البلاد التي أتوا منها وعن الأماكن التي يريدون زيارتها [١٠٥]. ويذكر بومجارتن أن كل المسيحيين القادمين إلى القاهرة كانوا ينزلون بمنزل كبير التراجمة [١٠٦].

كما كان كبير التراجمة هو المسئول عن إعداد وترتيب الزيارات التي يقوم بها الحجاج المسيحيون داخل القاهرة وضواحيها، وكذلك الأمر بالنسبة للحجاج الراغبين في التوجه إلى مدينة القدس، وكان يخصص بعض المماليك (للحماية والحراسة) وعدد من المترجمين لمرافقة الحجاج في تلك الزيارات، بالإضافة إلى منحهم التراخيص اللازمة للسماح لهم بدخول المزارات المسيحية في شتى مناطق السلطنة [١٠٧]؛ فيذكر سيميوني أن التراجمة الذين كانوا في بلاط السلطان المملوكي قد لعبوا دورا مهما في مساعدة الحجاج للحصول على إذن وتصريح من السلطان يسمح لهم بزيارة "القبر المقدس" للمسيح، وبقية المزارات المسيحية– بما فيها الكنائس– دون أن يدفعوا أي ضريبة. ويضيف هذا الحاج أن هذا التصريح سمح لهم بالتنقل في البلاد المصرية وبيت المقدس في سلام وأمان، "وتمتعوا بحرية تامة، دون الخشية من اعتداء أي أحد عليهم" [١٠٨]. ويقول فريسكوبالدي إنه وأحد أصدقائه من الحجاج لما أرادوا التوجه إلى مدينة غزة، فإن كبير التراجمة جهز لهما ١٤ جملا لحمل أمتعتهم، كما أنه خصص لهما ترجمانا يرافقهما في تلك الرحلة. وفي مقابل ذلك فإن كبير التراجمة تحصل منهما على ٩٦ دوكة ذهبية [١٠٩]. كما أن أنجلور أشار إلى أن أحد التراجمة – يدعى Cocheca– كان مرافقا لهم أثناء توجههم لزيارة الأهرامات والأماكن الأثرية الأخرى، والملاحظ من رواية أنجلور أن الترجمان في هذه الحالة كان يقوم بدور "المرشد السياحي" الذي يشرح لهم قصة وتاريخ هذه الآثار والمزارات [١١٠]. ويمكننا القول كذلك إن الترجمان كان يأخذ الحجاج فيما يسمى الآن "برحلات السفاري"؛ فيذكر الرحالة السابق أنهم بعدما انتهوا من زيارتهم لكنيسة القديس أنطوان *saint*

Anthoine– المطلة على النيل– قام الترجمان باستئجار عدد من الجمال، التي امتطاها الحجاج وخرجوا جميعا باتجاه الصحراء، وقد ظلوا في تلك الرحلة حتى غروب الشمس[١١١].

بيد أن أوامر كبير التراجمة دائما ما كانت تصدر للحجاج بحظر الخروج من مسكنهم إلى شوارع وأسواق القاهرة بدون إذنه تحت أي ظرف، وأن هؤلاء الأوربيين عندما يرغبون في الخروج إلى الأسواق لشراء أغراضهم وهداياهم فإن الترجمان كان يخصص لهم عددا من المماليك للخروج معهم، لتوفير الأمن لهم، ولمساعدتهم على التحرك داخل أسواق القاهرة التي كانت مكتظة بالبائعين والمشترين [١١٢].

ويحدثنا واحد من أهم الرحالة والحجاج الذين زاروا مصر وبلاد الشام في النصف الأول من القرن ٩هـ/١٥م– وهو بيدرو تافور– عن لقائه بكبير التراجمة في بلاط السلطان برسباي (٨٢٥–٨٤١هـ/١٤٢٢–١٤٣٨م) [١١٣]، الذي كان يسمى صايم Saym. وتعود أهمية هذه الرواية إلى أن صاحبها تافور لم يأت بصفته حاجا فحسب، وإنما كان كذلك مبعوثا وسفيرا من قبل ملك قبرص يوحنا الثاني (١٤٣٢م–١٤٥٨م) [١١٤] للقاء السلطان المملوكي الأشرف برسباي. ولعل المعلومة الأولى التي يذكرها هذا الحاج عن الترجمان– الذي كان يبلغ من العمر ٩٠ عاما– هو أنه كان ينتمي في أصوله إلى مدينة قشتالة الإسبانية، وأن والده اليهودي قد حمله وهو صغير وانتقلوا سويا إلى بيت المقدس، ثم بعد وفاة والده تحول إلى الإسلام [١١٥]. كما أضاف تافور أن ملك قبرص (السابق) جانوس (١٣٩٨م–١٤٣٢م) [١١٦]– الذي كان أسيرا بمصر– أبدى تقديرا وامتنانا كبيرا للترجمان صايم نظرا للخدمات التي قدمها له وهو مسجون، ويقال إن هذا الملك بعد عودته لقبرص كان يرسل له سنويا مبلغ ٢٠٠ دوكة.

ويذكر هذا المبعوث أنه عندما وصل إلى القاهرة توجه برسالته إلى منزل كبير التراجمة ودفعها إليه، كما أنه وجه إليه التحية من الملك القبرصي، ودفع له كذلك مبلغ

المائتي دوكة المرسلة من الملك يوحنا "وفقا لأحكام وصية والده"، وأخبره أن هذا المبلغ سيرسل له مدى الحياة [١١٧]. ويشير تافور إلى أن الترجمان استقبله بلطف، واستضافه في منزله لمدة يومين قبل أن يذهب به للقاء السلطان برسباي، كما أنه أبدى فرحا وسعادة كبيرة عندما علم أن تافور قشتالي مثله؛ فيقول "لقد استقبلت جيدا في منزل هذا الترجمان كما لو كنت ابنه، وقد سمح لي بالاختلاط مع زوجاته وأطفاله، وأخبرني أنه كان شرف عظيم له أن يراني، وفي الواقع بدا الأمر كأنني كنت مواطنا له، وذلك لأن أطفاله كانوا مغرمين بي". ويضيف تافور أنه قد تحدث كثيرا مع صايم، ولم يخف عنه شيئا من المهمة المكلف بها، "وذلك للاستفادة من خدماته ونصائحه" [١١٨]. وفي اليوم الثالث من تلك الزيارة أخذ كبير التراجمة الرسائل التي أتى بها تافور وتوجه بها إلى السلطان وعرضها عليه، وقد استشاره برسباي في الردود التي سيرسلها إلى ملك قبرص. ثم في تلك الليلة أعاد الترجمان الرسالة التي تحمل الرد "وهي مغلقة" [١١٩].

كما أن تافور– بعد انتهاء مهمته– ظل في القاهرة لمدة شهر كامل، منتظرا وصول السفينة التي كانت ستعيده إلى جزيرة قبرص. وخلال تلك الفترة قام بزيارة العديد من الأماكن، وكان كبير التراجمة مرافقا له في تلك الزيارات، لذلك نرى تافور يمتدحه قائلا: "كان من حسن حظي أن أحصل على مرشد مثل كبير التراجمة، لأنه كان يسعد كثيرا للقيام بكل ما أريده وأطلبه". ولعل أكثر ما أعجب به هذا المبعوث هو تلك الزيارة التي ذهب فيها صحبة صايم إلى المطرية. كما أن تافور لما طلب من برسباي السماح له بالذهاب إلى جبل سيناء– لزيارة بعض الأماكن المسيحية– وافق السلطان على طلبه، وأمر أحد تراجمته بمرافقة هذا السفير. كما قام كبير التراجمة بتجهيز كل ما هو ضروري لهذه الرحلة، "وأوصى الترجمان الذي سيرافقني– كما يقول تافور– بأن يعتني بي جيدا،

كما أنه كتب إلى بطريرك الإسكندرية ليقوم بمراسلة رئيس دير سانت كاترين في جبل سيناء للاعتناء والاهتمام بي [١٢٠].

من ناحية أخرى، كان كبير التراجمة يرافق الحجاج الأوربيين عند ذهابهم لزيارة السلطان المملوكي في قصره، وغالبا ما يكون ذلك عند قدومهم للقاهرة، أو عند انتهاء إقامتهم في العاصمة المصرية ورغبتهم في المغادرة باتجاه الإسكندرية، للحاق بالسفن البندقية التي ستقلهم إلى بلدانهم [١٢١]. وفي هذه الحالة فإن كبير التراجمة كان يعلم الحجاج– والزائرين الأجانب بصفة عامة– الآداب والتقاليد المرعية التي يجب مراعاتها عند التوجه إلى البلاط السلطاني ومقابلة السلطان [١٢٢]. فقد ذكر جيستل أنهم لما أرادوا مقابلة السلطان قايتباي توجهوا إلى كبير التراجمة (تغري بردي) وأهدوه جوهرة ثمينة "كانوا قد أتوا بها من مدينة البندقية، وتوسلوا إليه لقبولها كدليل على شكرهم وامتنانهم"، وفي المقابل طلبوا منه أن يحقق رجاءهم بمقابلة السلطان، فوعدهم الترجمان بمساعدتهم في هذا الأمر، وأمرهم بالاستعداد والتأهب لتلك المقابلة. كما أن هذا الحاج يشير إلى أنه في مقابل هديتهم فإن تغري بردي منحهم زجاجة من زيت البلسم الشهير. وخلال يومين كان تغري بردي قد رتب أمر الزيارة وأبلغ الحجاج بذلك، وقام باستدعائهم لتدريبهم على "العادات المرعية" التي يجب عليهم الالتزام بها عند الدخول على السلطان؛ من ذلك أنهم عند رؤية السلطان كان يجب عليهم أن يقوموا بتقبيل الأرض ثلاث أو أربع مرات وهم يقتربون منه رويدا رويدا، ثم لما يصلون أمامه يذكرون بصوت مرتفع حاجتهم وطلبهم، حيث يقوم أحد التراجمة بترجمة حديثهم للسلطان. وبعد انتهاء المقابلة وعند رحيلهم يجب عليهم الرجوع للوراء وهم ينظرون للسلطان بوجوههم "لأطول فترة ممكنة"، حيث إنه كان ممنوعا على الزائرين إعطاء ظهورهم للسلطان بمجرد مغادرتهم [١٢٣]. ومن الملاحظات التي أوردها فابري عن زيارته لبلاط السلطان المملوكي صحبة كبير التراجمة، أن هذا

الأخير لم يدخل مع الحجاج، وإنما كان له مدخل خاص به، يلج منه مباشرة للحجرة التي بها السلطان [١٢٤].

ومع نهاية فترة إقامة الحجاج بالقاهرة فإن كبير التراجمة كان هو المسئول عن ترتيب إجراءات سفرهم باتجاه الإسكندرية؛ فكان حريصا على أن يزود الحجاج المسافرين ببعض الصكوك الصادرة من السلطان نفسه، والتي تضمن لهم السلامة في سفرهم، وعدم التعرض لهم بسوء من أي أحد. ثم بعدها يصطحبهم على الدواب إلى ميناء بولاق، حيث كانت تنتظرهم أحد المراكب النيلية التي ستسير بهم إلى دمياط. وعند هذا المكان تنتهي مهمة كبير التراجمة مع هؤلاء الحجاج، ويقوم بتوديعهم بعد أن يرفق معهم أحد الأشخاص المسئول عن إيصالهم إلى الإسكندرية[١٢٥].

وفيما يخص الأموال المستحقة لكبير التراجمة نظير الخدمات التي كان يقدمها للحجاج، فيذكر لنا فابري أنهم قبيل رحيلهم من القاهرة قاموا بتسديد مستحقات الترجمان والتي بلغت ٦ دوكات عن كل واحد من الحجاج، كما أنهم ألزموا بدفع ٤ دوكات نظير "الخطاب السلطاني" الذي تحصلوا عليه لتسهيل رحلتهم للإسكندرية، هذا فضلا عن مبلغ ٣٤٠ دوكة نظير تأجير المركب النيلية التي ستحمل الحجاج من ميناء بولاق باتجاه رشيد [١٢٦]. كما أن لنجراند يذكر أنهم بعدما أتموا زيارتهم للقاهرة وآثارها، ولما قرروا الرحيل باتجاه مدينة دمياط فإنهم كانوا ملزمين بدفع "بعض الإكراميات" لكبير التراجمة وللموظفين والكتبة الذين يعملون معه [١٢٧]. أما بومجارتن فيشير إلى أنه كان من المعتاد أن يقوم كل تاجر أوربي بتسديد قطعتين من الذهب لكبير التراجمة، وفيما يخص الحجاج القادمين لزيارة الأماكن المسيحية فكان يلزم كل واحد منهم سداد خمس قطع ذهبية [١٢٨].

كبير التراجمة تغري بردي:

ومن بين كبار رؤساء التراجمة الذين كانوا يعينون من قبل السلاطين المماليك يظهر لنا اسم "تغري بردي" كواحد من أشهرهم وأكثرهم نفوذا، وهذا الأمر يعود إلى الدور المهم الذي لعبه هذا الترجمان كسفير ودبلوماسي مع نهاية العصر المملوكي، كما أن روايات الحجاج جاءت مفصلة وكاشفة للمكانة الكبيرة التي كان يتبوأها هذا الترجمان؛ فقد تحدثوا عن أصله وزوجاته وقصره وأملاكه، وغير ذلك من حياته الخاصة.

والواقع هناك عدة روايات متباينة يذكرها لنا الحجاج الأوربيون فيما يخص الأصول التي يعود إليها تغردي بردي؛ فيذكر جيستل إن أصوله تعود إلى مدينة فالنسيا الإسبانية، حيث ولد ونشأ بها [١٢٩]. أما فابري فيقول- بحسب ما رواه له أحد التجار الأوربيين المقيمين في القاهرة ويسمى فرنسوا- أن تغري بردي هو في الأصل يهودي من جزيرة صقلية، ولما أصبح شابا انخرط في سلك الكهنوتية حتى وصل إلى مرتبة الحاخامية، ثم ما لبث أن تحول بعد ذلك من اليهودية إلى المسيحية. وقد أصبح ماهرا في علم اللاهوت، كما أنه أتقن اللغة اللاتينية، وانضم إلى طائفة الرهبان، إلا إنه فر هاربا من صقلية واتجه إلى البلاد المصرية واعتنق الإسلام، ثم ظهر وذاع صيته في بلاط السلطان وأصبح من مماليكه. ويقال إنه استطاع إقناع السلطان بأن يكون هو المسئول عن استقبال جميع المسيحيين واليهود الذين يفدون إلى مصر وبلاد الشام، ومن ثم تولى منصب كبير التراجمة في البلاط السلطاني [١٣٠]. ولا شك أن معرفته وقدرته على التحدث بالعديد من اللغات- التي يتقن منها سبع كما يقول الرحالة والحاخام مشولام- قد أهلته لتبوأ هذا المنصب الكبير بالبلاط المملوكي [١٣١]. بينما يحدثنا السفير والمبعوث بيير مارتير دي انجيرا – الذي كان مرسلا من فرناندو وايزابيلا ملكي أرغونة وقشتالة إلى السلطان الغوري (٨٥٠-٩٢٢هـ/١٤٤٦-١٥١٦م) [١٣٢] عام ٩٠٧هـ/١٥٠١-١٥٠٢م- بشيء من

التفصيل عن أصول تغري بردي قائلا إن أباه ينتمي إلى مدينة بلنسية ويدعى لويس دي براتو، وأنه قد رزق بابنه هذا في مدينة مون بلانكو، وهي إحدى المدن الواقعة على الحدود ما بين المسلمين والمسيحيين في إسبانيا. ولما شب الطفل الصغير ألحقه أبوه بالعمل مع أحد ربابنة السفن. ويقال إنه في إحدى الرحلات البحرية، ونتيجة لعاصفة شديدة، تحطمت السفينة التي كان عليها هذا الصغير بالقرب من السواحل المصرية، فوقع في أسر السلطات المملوكية، وقد ظل أسيرا لمدة سنوات ثلاث عانى فيها كثيرا، حتى تم عتقه ودخوله في الإسلام، فأصبح أحد المماليك وتسمى باسم "تغري بردي"، ثم أخذ يتدرج في المناصب حتى وصل إلى مرتبة الإمرة، وتقلد تلك الوظيفة المرموقة "بصفته كبير التراجمة" [١٣٣]. مهما يكن من أمر، فإن الروايات كلها أجمعت على أن تغري بردي ينتمي في أصوله إلى إحدى المدن الأوربية وأنه كان بداية ذا عقيدة يهودية فمسيحية، وأنه لما وصل إلى الأراضي المصرية اعتنق الإسلام ونال الحظوة لدى السلطان المملوكي، بفضل حنكته ومهارته وتعدد اللغات التي كان يتقنها، وهو ما سهل عليه الحصول على منصب ووظيفة "كبير التراجمة"، الذي جعله صاحب كلمة ورأي نافذ داخل البلاط السلطاني.

أما على المستوى الأسري، فقد كان لتغري بردي زوجتان تقيمان معه في قصره، بالإضافة إلى عدد كبير من الجواري. ويصف فابري هاتين الزوجتين بأنهما صغار السن، وعلى قدر كبير من الجمال. وقد تحصل تغري بردي على الزوجة الأكبر سنا بالشراء من أسواق الإسكندرية، وأما الأخرى فقد تملكها بالشراء من بلاد اليونان، وتزوج بها "وهي ما زالت فتاة مراهقة" [١٣٤]. كما أن الحجاج في رواياتهم يشيرون إلى أن زوجتي الترجمان كانتا على المسيحية؛ حيث أبدتا رغبتهما في مشاركة الحجاج المسيحيين الاحتفال بالقداس، وهذا الأمر أثار اندهاشهم وإعجابهم، فقد كانوا يظنون بداية أنهما يعتنقان

الإسلام [١٣٥]. ويذكر فابري أنه بالرغم من أن الحجاج قد أبدوا تخوفا من هذا الأمر، وأرادوا إخراجهن من الحجرة، خشية وصول الخبر لكبير التراجمة فيلحقهم الضرر، إلا ان الزوجة الكبرى للترجمان تحدثت معهم باللغة الإيطالية، وأعلمتهم أنهن مسيحيات، "وأنهن أجبرن على الارتباط برجل قد فارق دينه واعتنق الإسلام". كما أن فابري أشاد بالأناقة التي كان عليها زوجات تغري بردي، قائلا إنهن كن يتزين بملابس فخمة مثل السيدات النبيلات في أوروبا، كما كن يرتدين فوق رؤوسهن أردية جميلة محلاة بالذهب والمجوهرات[١٣٦].

قصر وممتلكات تغري بردي: يذكر بريدنباخ أنه بالرغم من أن الطرقات التي ساروا فيها– وهم في طريقهم إلى منزل تغري بردي– كانت ضيقة ومزدحمة بالناس (الذين كانوا يتعرضون لهؤلاء الحجاج بالمضايقات والصيحات)، وهو الأمر الذي أعطاهم فكرة غير طيبة عن هذا المكان، إلا أن تلك النظرة تغيرت تماما لما وصلوا إلى قصر الترجمان، الذي يصفه هذا الحاج "بالفخامة والروعة"؛ فهو مزين بالدهانات والرسوم الرائعة والمفروشات الجميلة والحوائط المزخرفة [١٣٧]. ويذكر هذا الرحالة أنهم في أحد الأيام وهم يقضون نهارهم عند تغري بردي، قام هذا الأخير بأخذهم في جولة داخل القصر، "لإزالة الملل عنهم"؛ فرأوا الحجرات والأثاث الفخم، كما إنه اصطحبهم لرؤية زوجاته وخدمه، والأسلحة الحربية والسروج المذهبة التي يمتلكها، والجوائز التي تحصل عليها [١٣٨]. ويصف بومجارتن هذا القصر بالعظمة والروعة، قائلا إنه كان يوجد في وسطه فناء كبير مستدير الشكل، وبداخل هذا الفناء يوجد عدد كبير من الحجرات، وأن الحجرة التي اجتمع فيها مع الحجاج كانت مفروشة كلها بسجاد مطرز بالذهب ومحلى بأجمل الرسومات. كما أن هناك حديقة رائعة كانت تحيط بالقصر[١٣٩].

مهما يكن من أمر، فإن رواية فليكس فابري عن قصر تغري بردي ومحتوياته تعد هي الرواية الأكثر تفصيلا من بين روايات جميع الحجاج الأوربيين؛ فيذكر إنهم في البداية دخلوا في حجرة ممتلئة بالأدوات والتجهيزات الخاصة بالخيول والبغال، وكان يوجد بها الكثير من السروج المزينة بالذهب والفضة، إلى جانب عدد كبير من الأربطة والأحزمة المزينة "على غرار أحزمة السادة النبلاء". ثم انتقلوا بعد ذلك إلى حجرة أخرى كان يوجد بها قفص كبير من الحديد، بداخله حيوان بري بحجم الثعلب، ويقترب لونه من لون الذئب، أما رأسه فكان يتشابه مع رأس القط، وأرجله تبدو قصيرة، وقد أسماه فابري *saveta* (المقصود به القط الزباد، وهو حيوان ثديي صغير ذو فرو رمادي وبه كيس يحتوي على مادة معطرة)، ويقول فابري إن المادة العطرية المستخرجة من هذا الحيوان كانت ثمينة وغالية؛ "فقد كانت– عند بيعها– تدر مبلغ دوكة واحدة في كل أسبوع"، كما أن هذه المادة العطرية تفوق في قيمتها المسك، لذلك كان يقاس وزنها بالذهب. وقد تحصل كبير التراجمة على عدة دوكات من الحجاج المقيمين في قصره نظير إعطائهم هذه المادة العطرية "التي تشبه دقيق الشوفان السميك" [١٤٠]. كما شاهد فابري بالقصر أنواعا متعددة من الحيوانات الأخرى، مثل الفهد المتوحش، الذي كان مربوطا بسلسلة، ولا يستطيع أحد الاقتراب منه سوى تغري بردي وهو يحمل سوطا بيده. كما أن كبير التراجمة أخذ الحجاج إلى ردهة صغيرة مغلقة في القصر، حيث كان يوجد بها ثلاث نعامات ذات حجم صغير، قد تم صيدهن من الصحراء. وفي مكان آخر في القصر كان يوجد عدد من الببغاوات، "ذات الشكل الجميل"، والمعلقة في بعض الأقفاص. كما إن الترجمان اصطحب الحجاج لزيارة "الاسطبلات"، التي كان يوجد بها العديد من أنواع الخيول الجميلة، وأشار هذا الرحالة إلى أن مصر تشتهر في العالم أجمع بخيولها المميزة[١٤١].

ثم ينتقل فابري للحديث عن حجرة نوم تغري بردي، التي يصفها بالجمال والروعة؛ فهي مزينة بالرخام الفاخر، ومفروشة بأجمل السجاجيد، "ومن باب المحافظة على نظافة تلك الحجرة فقد قام الحجاج بخلع أحذيتهم أمام مدخل الحجرة". ويضيف فابري أن غرفة النوم هذه كانت توجد في مكان مرتفع في القصر (برج)، وهي مغطاة بقبة من الرصاص، وفي قمتها يوجد هلال "كما هو الحال في جميع مساجد المدينة". وقد كان هذا البرج– الذي تقع فيه الحجرة– مستديرا ومزينا بنوافذ زجاجية من جميع الجهات، وعبر تلك النوافذ يخترق ضوء الشمس الحجرة وينتشر في جميع أرجائها [١٤٢]. وبداخل هذه الحجرة كان يوجد زوجتا الترجمان جالستين، وقد انشغلا بتطريز بعض الأقمشة، وإلى جوارهما كان يوجد العديد من الجواري. والواقع إنه من فرط إعجاب هذا فابري بالحجرة فقد توجه بحديثه للترجمان قائلا: إذا كانت هذه جنتك في الدنيا، أسألك ماذا ستملك في الحياة الآخرة؟ فردت عليه الزوجة: "نحن سنتمتع بالجنة في الدنيا والآخرة" [١٤٣]. وربما يكون سؤال فابري وإجابة الزوجة (المسيحية كما يدعي فابري) تكون فيه إشارة إلى اختلاف المعتقد بين تغري بردي وزوجاته، ومصير كل منهما في الآخرة بحسب معتقد هذا الحاج المسيحي.

ومما يذكره فابري كذلك أنه كان يوجد بداخل هذا القصر غرفة بمثابة السجن الذي يتحفظ فيه على بعض المذنبين الأوربيين؛ وفي هذا السياق يذكر أنهم رأوا في هذا السجن أحد التجار الغربين وهو مقيد بالحديد، وكانت جريرته أنه تحصل على طفلين بالشراء من الإسكندرية، وذهب بها إلى جزيرة كريت، حيث اعتنق هذان الطفلان المسيحية. فلما عاد هذا التاجر مرة أخرى إلى الإسكندرية تم إلقاء القبض عليه وأرسل إلى القاهرة، حيث صدرت الأوامر السلطانية لكبير التراجمة بالتحفظ عليه في منزله، حتى يفدي نفسه بدفع مبلغ ٥٠٠ دوكة، أو يتحول عن ديانته، أو يكون مصيره الموت. ويذكر فابري أنه تدخل وزملاؤه لدى تغري بردي من أجل فك أسره، وهو الأمر الذي نجحوا فيه في نهاية المطاف

[١٤٤]. من ناحية أخرى، يذكر فابري أنه رأي رجلين أوربيين آخرين مختبئين في هذا السجن، أحدهما ينتمي في أصوله إلى كتالونيا، والآخر من جنوة. ورغم أنهما كانا من المماليك، إلا أن اتفاقا كان قد تم بينهما وبين تغري بردي للاختباء لديه بعض الوقت، حتى يتحينا الفرصة السانحة للخروج إلى الإسكندرية، ومن هناك يلحقان ببلادهم [١٤٥].

من جهة أخرى يعطينا فابري لمحة عن الاحتفالات التي كانت تتم في قصر كبير التراجمة– وفي مصر بصفة عامة– عند قدوم شهر رمضان؛ فيذكر أنهم لم يكونوا يستطيعون الخلود للنوم في المساء بسبب الصخب والاحتفالات الكبيرة داخل المنزل؛ فالجميع كان يغني على أنغام الآلات الموسيقية، حتى الترجمان نفسه كان يأتي إلى غرفة هؤلاء الحجاج المسيحيين صحبة أزواجه وعدد من خدمه، ويبدؤون في الغناء [١٤٦]. وعن حب تغري بردي للموسيقى والغناء يذكر بعض الحجاج أنهم لما طلبوا منه المكوث لبعض الوقت في المطرية– قبل ذهابهم إلى القاهرة– "للاستمتاع بجمالها وجوها"، فإن تغري بردي وافقهم على طلبهم، لكنه اشترط عليهم أن يأخذ معه أحد أقاربهم– يسمى كونراد Conrad– الذي كان يجيد العزف على العود، ويضيف هؤلاء الحجاج أن ما دفع الترجمان لهذا الطلب هو "عشقه لفن هذه الآلة" [١٤٧].

تغري بردي: الدبلوماسي والسفير: لعب تغري بردي دورا مهما في العلاقات الدبلوماسية التي ربطت بين سلطنة المماليك وبين عدد من الدول والمدن الأوربية؛ فقد أرسل أكثر من مرة كمبعوث من السلطان المملوكي للتفاوض مع هذه القوى الأوربية، وفي مقدمتها مدينة البندقية. والواقع إن تغري بردي كان حاضرا وبقوة في المفاوضات التي تمت بين السلطان قايتباي وبين السلطات البندقية في صفر ٨٩٥هـ/يناير ١٤٩٠م، والتي بموجبها انتقلت "حيازة" جزيرة قبرص إلى تلك المدينة الإيطالية نظير دفع ضريبة سنوية للسلطان المملوكي، بل إن هذا الترجمان كثيرا ما كان هو المسئول عن استلام

تلك الضريبة التي تصل إلى القاهرة [١٤٨]. وفي تعليمات "مجلس الشيوخ البندقي" إلى المبعوث بدرو ديدو Piero Diedo تم وصف الترجمان تغري بردي بأنه "ذو أهمية كبيرة، وذكي للغاية، ولديه قدرات كبيرة". أما المبعوث ديدو في رسالته إلى مجلس الشيوخ فيذكر أن تغري بردي شارك في معظم الجلسات الخاصة التي عقدها مع السلطان قايتباي، "وأنه كان مفيدا ومؤثرا للغاية" [١٤٩]. كما أن تغري بردي كان على رأس سفارة أخرى أرسلت إلى البندقية في شهر جمادى الأولى ٩١٣هـ/سبتمبر ١٥٠٧م أثناء حكم السلطان قانصوه الغوري. وقد كانت الرسائل التي يحملها الترجمان تدور حول "معالجة بعض الأزمات" المتعلقة بتجارة البندقية في مصر؛ مثل ارتفاع أسعار التوابل، وسوء معاملة التجار البنادقة، كما أن السلطان تعهد في رسالته بإصدار "مراسيم جديدة" تحمل عددا من المميزات للتجار البنادقة في الإسكندرية [١٥٠]. ويقال كذلك إن تلك السفارة كانت تهدف إلى طلب مساعدة البنادقة في إمداد سلطنة المماليك بالأخشاب والأسلحة اللازمة لبناء قوة بحرية تكون قادرة على التصدي لخطر البرتغاليين المتنامي في منطقة المحيط الهندي والبحر الأحمر [١٥١].

والواقع إن تعيين واختيار تغري بردي كسفير ومفاوض لم يقتصر على مدينة البندقية فحسب، وإنما شارك كذلك في المفاوضات التي أجراها السلطان قانصوه مع مدينة فلورنسا الإيطالية [١٥٢]. كما أن اسم هذا الترجمان كان حاضرا في المفاوضات التي عقدها المبعوث بيير مارتير دي انجيرا- المرسل من الملكين الإسبانيين فرناندو وايزابيلا- مع السلطان الغوري في شهر شعبان ٩٠٧هـ/فبراير ١٥٠٢م، وكان هذا الترجمان في استقبال انجيرا عند وصوله للقاهرة، بل يقال إنه كان له دور في إقناع السلطان بالموافقة على استقبال هذا المبعوث، خاصة وأن الغوري لم يكن مرحبا في البداية بتلك الزيارة، ورفض إعطاء السفير إذنا وسماحا بالمرور إلى بلاطه بالقاهرة، وذلك تحت ضغط المسلمين واليهود

المهجرين من إسبانيا (الأندلس) إلى مصر عقب سقوط غرناطة عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م. ويقال إن تغري بردي قام بتلك المساعدة نظير المال الذي دفعه له المبعوث الإسباني، "فقد عرف عنه الجشع في جمعه" [١٥٣]. كذلك كانت لتغري بردي مشاركة فعالة في السفارة التي أرسلها السلطان الغوري إلى بلاط السلطان العثماني بايزيد الثاني (٨٨٦-٩١٨هـ/١٤٨١-١٥١٢م) [١٥٤].

من جانب آخر، فإن بومجارتن يعطينا إشارات ومعلومات مهمة عن الاحتفالية الكبيرة التي أعدت لاستقبال الترجمان تغري بردي عند وصوله إلى مدينة الإسكندرية، بعد انتهاء مهمته كمبعوث للسلطان الغوري إلى دوق البندقية [١٥٥]. وتنبع أهمية تلك الرواية من أن صاحبها كان مرافقا للترجمان في السفينة القادمة من البندقية إلى سواحل الإسكندرية؛ فيذكر بداية أن أهل المدينة تدفقوا إلى المكان ليروه ويظهروا له احترامهم، كما أن نائب المدينة كان في مقدمة الحضور وبصحبته عدد كبير من الجنود المماليك، وكلهم يمتطون الخيول. وقد أحدث هذا الجمع الغفير ضجيجا كبيرا، خاصة وإنهم كانوا يستعملون في احتفاليتهم العديد من الآلات الموسيقية. وكان من بين المشاركين كذلك في هذه الاحتفالية الكبيرة قنصل البندقية، الذي أحضر العديد من المراكب والآلات الموسيقية. ويضيف بومجارتن أن السفن الموجودة بالميناء أطلقت عددا كبيرا من القذائف- التي ملأت المكان بالدخان- احتفاء بتغري بردي [١٥٦]. كما يحدثنا هذا الحاج عن مظاهر الأبهة التي كان عليها تغري بردي عند وصوله إلى قصره بالقاهرة؛ فقد كان يرتدي ملابس فخمة كانت قد أهديت إليه من دوق البندقية، كما إنه كان محاطا بعدد كبير من المماليك، "ودخل إلى منزله في أبهة عظيمة". وكان الخليفة العباسي في مقدمة كبار رجال الدولة القادمين إلى قصر تغري بردي لتهنئته بعودته سالما من تلك الرحلة، "وقد استقبل تغري بردي الخليفة وحاشيته بكل احترام وتقدير" [١٥٧].

ولا شك أن تلك السفارات التي أرسل فيها تغري بردي إلى بلدان عدة، وتلك المظاهر الاحتفالية الصاخبة التي رافقت عودته لمصر تدل للوهلة الأولى على الثقة الكبيرة التي وضعها السلطان قايتباي ومن بعده السلطان قانصوه في شخص هذا الترجمان، لقدرته ومهارته الفائقة على التفاوض لصالح السلطنة. إلا أن الأمور سرعان ما شهدت منحنى آخر في شهر المحرم عام ٩١٧هـ/١٥١١م كما يروي ابن اياس؛ فقد تم إلقاء القبض على تغري بردي، "وأرسل (السلطان قانصوه) ختم على بيته، واحتاط على موجوده، ورسم على عياله"، ويذكر ابن اياس أن السبب في ذلك يعود إلى ما وصل السلطان من تآمر تغري بردي مع ملوك الفرنج، وأنه أخبرهم بأن السلطان "ليس له همة إلى إرسال تجريدة، وأن السواحل خالية ليس بها مانع". وقد واجه السلطان كبير التراجمة بالمكاتبات التي دونها بخط يده، ورغم إنكاره لهذا الأمر إلا أن السلطان– الساخط عليه– أودعه السجن، واحتاط على أمواله [١٥٨]. ورغم أن السلطان قد أصدر عفوا عاما شمل تغري بردي– في شهر ربيع الآخر عام ٩١٩هـ/١٥١٣م– إلا أنه لم يعده إلى منصبه ككبير للتراجمة، وإنما حل محله شخص آخر يسمى يونس، الذي كان سابقا نائبا لتغري بردي [١٥٩].

توتر العلاقات ما بين تغري بردي والحجاج المسيحيين: في الواقع رغم الخدمات العديدة التي كان يقدمها تغري بردي للحجاج المسيحيين، فإن العلاقات بين الطرفين كثيرا ما كانت تشهد توترا، وذلك بسبب خداع وغش وطمع هذا الترجمان، بحسب كلمات فابري؛ حيث إن هذا الاحتيال مكنه من التحصل على "ثروة هائلة"، استطاع أن يمتلك بها قصره الفخم الذي كان يقيم فيه، إلى جانب العديد من الممتلكات الأخرى، فضلا عن الزوجات والجواري الجميلات اللاتي اشتراهن بتلك الأموال [١٦٠]. كما أن هذا الرحالة يشير إلى أن أحد التجار الغربيين المقيمين في القاهرة أتى إليهم سرا، وأخبرهم بأنهم يجب أن ينتبهوا لتغري بردي جيدا، لأنه "رجل غشاش وفاسد"، وأنهم لو ظلوا لديه– في منزله– ليوم واحد

فإنهم سيفقدون كل ما يملكون، لذلك فإنه سيبحث لهم عن مكان آخر يقيمون فيه أكثر راحة وأمنا. ويقول فابري إنهم لما فاتحوا تغري بردي في مغادرتهم لمنزله "لأنهم يريدون أن يريحوه ولا يسببوا له قلقا"، وأنهم سيقيمون لدى بعض أصدقائهم من المسيحيين الوافدين، ما كان من هذا الترجمان إلا أن تغيرت معاملته، وقام بتهديدهم، وحذرهم من أنهم في حالة ترك مسكنه ومرافقته فإنه لن يكون مسئولا عنهم إذا ما تعرضوا لأي مضايقات أو أذى، وكان مما قاله لهم "إنكم ملكي وخاصتي وأمانكم بين يدي، وإذا أردت وضعتكم جميعا تحت قدمي". ثم يقول فابري "إننا لما سمعنا هذا الكلام علمنا أننا قد وقعنا في الشرك، وأننا أصبحنا أسرى له، وليس لدينا خيار سوى الإقامة عنده" [١٦١].

من جانبه يذكر بريدنباخ أن هذا الترجمان تمكن من الوصول إلى درجة كبيرة من النفوذ والثراء، والفضل في ذلك يعود إلى الأموال الكبيرة التي كان يتحصل عليها من المسيحيين واليهود، وذلك بصفته "المدافع عنهم والراعي لهم"؛ لكنه بدلا من رعايتهم والاهتمام بهم "فقد كان يعرف كيف يقوم بتجريدهم من أموالهم، والحصول عليها بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة" [١٦٢]. أما بومجارتن فرغم إشادته بحماية ورعاية تغري بردي للحجاج "بحيث إنهم كانوا يستطيعون التنقل حيثما شاءوا وهم آمنون على أنفسهم"، إلا إنه لم يخف الطمع والجشع الذي كان عليه هذا الترجمان؛ فرغم أنهم أعطوه مبلغا كبيرا من النقود الذهبية إلا إنه "كان يتطلع لأخذ كل ما يملكونه من ذهب ليضعه في جيبه" [١٦٣]. كما يقول إنهم بالرغم من منحهم تغري بردي الضريبة المفروضة عليهم لزيارة بيت المقدس قبل تحركهم من القاهرة، إلا أن تلك الأموال ذهبت سدى، وكانوا ملزمين بأن يسددوا لحاكم القدس هذه الضريبة مرة أخرى، والتي بلغت قيمتها ٨ أشرفية [١٦٤] *seraphs* عن كل واحد منهم، "حتى يتمكنوا من زيارة القبر المقدس"، وذلك رغم أنهم كانوا يملكون خطابات من السلطان وكبير التراجمة لتسهيل مهمتهم، وعدم إلزامهم بدفع

أي مستحقات مالية، "إلا أن تلك الأوامر والخطابات لم تكن تعني شيئا" [١٦٥]. وفي الواقع، رغم حالة الغضب والانزعاج التي كانت تبدو على الحجاج حيال ممارسات تغري بردي، فإنهم لم يكن بوسعهم سوى الاستجابة لطلباته ومنحه ما يريد، لأنهم- بحسب كلمات فابري- "كانوا بين مخالبه ولا يستطيعون الهرب منه" [١٦٦].

ويروي لنا فابري موقفا آخر يدل على جشع تغري بردي، ورغبته الدائمة في الحصول على الأموال من الحجاج بشتى الطرق والأساليب؛ إذ إن هؤلاء الحجاج لما كانوا على وشك مغادرة القاهرة باتجاه الإسكندرية، فإن هذا الترجمان نصحهم بضرورة الحصول على "صكوك مرور" من السلطان، لأنهم بدونها سيعانون كثيرا أمام أبواب الإسكندرية، وسيقوم الحراس بالتضييق عليهم وتجريدهم من ثيابهم أثناء عملية التفتيش، كما أن جميع متعلقاتهم ستخضع للتفتيش الدقيق، أما في حالة امتلاكهم للخطابات السلطانية فإنهم سيدخلون المدينة بكل سهولة، ودون أي مضايقات من الحراس. بيد أن فابري أشار إلى أن تلك النصيحة من تغري بردي لم يكن الهدف منها مساعدة الحجاج، وإنما كان يريد من ورائها التحصل على مبالغ مالية أخرى نظير تزويدهم بتلك الخطابات، التي- كما يقول فابري- لم تحل دون تعرضهم لمواقف صعبة عند وصولهم إلى أبواب الإسكندرية، بل إن إجراءات التفتيش أصبحت أكثر صعوبة، وذلك "لاعتقاد الحراس أن هؤلاء الحجاج كانوا يحملون كنزا ويريدون تخبئته" [١٦٧].

كما أن بريدنباخ يشير إلى موقف تعرض فيه هو وبقية رفقته من الحجاج للخداع من قبل تغري بردي؛ إذ إنهم قبيل ارتحالهم من القاهرة كانوا قد سددوا له قيمة تأجير المركب النيلية التي ستقلهم من القاهرة إلى رشيد، إلا أنهم عند وصولهم لهذه المدينة أخذ صاحب (ربان) المركب يطالبهم بتسديد ٣٣ دوكة نظير نقلهم، ورغم أن الحجاج حاولوا إقناعه بأنهم سددوا هذا المبلغ للترجمان بالقاهرة، إلا أن هذا الربان أصر على موقفه ونفى

استلامه لأي أموال من تغري بردي، فاضطر الأوربيون لدفع المبلغ مرة ثانية "لاعتقادهم أن الشكوى لن تجدي نفعا، وأن الحاج المسيحي لن يجد عدالة لأخذ حقه"، خاصة وأن الأمر يتعلق بشخصية ذات مكانة كبيرة كهذا الترجمان "المخادع وسيء النية" [١٦٨]. فضلا عن ذلك فإن تغري بردي كان يقوم بمراسلة ترجمان الإسكندرية لاستقبال الحجاج والعناية بهم حتى مغادرتهم للمدينة، بيد أن فابري يذكر أن كبير التراجمة قام كذلك بإخبار ترجمان الإسكندرية بأن هؤلاء الحجاج القادمين إليه "أغنياء وكرماء ... وعليه أن يطلب منهم ما يريد دون أن يخشى شيئا"، وهو الأمر الذي عرضهم بطبيعة الحال للابتزاز من قبل ترجمان الإسكندرية [١٦٩].

٣. ترجمان الإسكندرية

جرت العادة أن يكون هناك تراجمة في الإسكندرية، التي تعد الميناء الأول والرئيس لمصر في العصر المملوكي؛ فإليه كانت تأتي السفن التجارية القادمة من شتى الأماكن، وبصفة خاصة البلدان الأوربية، وعلى متن تلك السفن التجارية كان يأتي أو يرحل من المدينة عدد كبير من الحجاج. وقد كان من المعتاد أن يصطحب الترجمان نائب المدينة، الذي كان يتوجه إلى الميناء عند وصول إحدى السفن الغربية؛ فقد كان الترجمان هو الواسطة الذي يقوم بترجمة الحديث ما بين هذا الحاكم وبين التجار والحجاج، وكانت الأسئلة التي يوجهها لهم الترجمان- كما يخبرنا سيميوني وفريسكوبالدي- تدور حول سبب قدومهم إلى مصر، ثم يطلب منهم إظهار كل ما يحملونه من أمتعة حتى يتم تفتيشها، ثم بعد الانتهاء من هذه العملية يسمح لهم بالدخول للمدينة [١٧٠]. كما يذكر فريسكوبالدي أن هناك ترجمانا قد قام بمرافقتهم من الإسكندرية إلى مدينة القاهرة للوصول إلى كبير التراجمة، وقد تحصل هذا الترجمان- مقابل هذه الرحلة- على ٤ دوكات من كل حاج [١٧١].

أما بالنسبة للحجاج القادمين من القاهرة إلى الإسكندرية والراغبين في مغادرة أراضي السلطنة، فإنهم عند وصولهم إلى أبواب المدينة كانوا يقومون بمراسلة الترجمان من أجل القدوم إليهم في أسرع وقت لمساعدتهم في الدخول، خاصة وأنهم- كما يقول بريدنباخ- كانوا يعانون كثيرا عند تلك الأبواب "فقد ظلوا محبوسين عندها ليلة كاملة" [١٧٢]. ويضيف بريدنباخ أنهم سلموا الترجمان "الخطاب" الذي كانوا قد حصلوا عليه من السلطان بالقاهرة، والذي بدونه لم يكن ليسمح لهم بالدخول من أبواب الإسكندرية [١٧٣]. وعلى ذلك فإن المهمة الأولى التي كانت منوطة بالترجمان تجاه الحجاج هو مساعدتهم في عبور تلك الأبواب، والالتماس من الحراس وجباة الضرائب عدم إهانتهم أو التضييق عليهم عند القيام بتفتيشهم. ثم بعد الانتهاء من عملية التفتيش كان يقوم الترجمان بإحضار عدد من الجمال والحمير لحمل الحجاج وممتلكاتهم إلى داخل المدينة [١٧٤].

ويصف فابري ترجمان الإسكندرية- يسميه Scham beck- الذي قدم إليهم عندما وصلوا إلى أبواب المدينة قائلا إنه رجل ذو شخصية قوية ومهيبة، يتميز بطول قامته وبشرته السمراء، وكان يتحدث اللغة الإيطالية بطلاقة. ثم يحدثنا هذا الرحالة عن العلاقة الطيبة التي ربطت بينهم وبين الترجمان منذ اللقاء الأول؛ فقد قام شام بك بتحيتهم وعناقهم- بحسب عادات البلد عند مقابلة غرباء- وهو الأمر الذي ترك انطباعا حسنا لدى هؤلاء الحجاج، حتى أن فابري يعقب على هذا الموقف بقوله: "إنه بتلك الروح الطيبة فتح طريقا لالتقاء قلوبنا ومحبتها" [١٧٥].

ويذكر ميربل- الذي كانت رحلته ما بين عامي ٨٢٢هـ/١٤١٩م و٨٢٨هـ/١٤٢٥م- أنهم عندما وصلوا إلى الإسكندرية قادمين من القاهرة أنزلهم الترجمان بفندق البنادقة، حيث لاقوا هناك ترحابا كبيرا من قبل تجار تلك المدينة وغيرهم من التجار الغربيين [١٧٦]. بيد أنه مع نهاية القرن ٩هـ/١٥م أصبح فندق الكتالونيين هو المكان المفضل لإقامة

الحجاج المسيحيين؛ فيذكر بريدنباخ- عام ٨٨٨هـ/١٤٨٣م- أنهم نزلوا بهذا الفندق، رغم أن البنادقة كانوا يمتلكون فندقين والجنويين فندقا، والسبب في ذلك يعود إلى العلاقة الوثيقة التي كانت تربط الترجمان بقنصل الكتالونيين، الذي كان مسئولا عن إدارة الفندق[١٧٧].

ثم إن الترجمان بعد أن يقوم بإنزال الحجاج في فندقهم فإنه كان يذهب بهم إلى قصر حاكم المدينة، لأخذ بياناتهم وأسمائهم وكتابتها في سجل. والواقع أن تلك الزيارة كانت تلزم جميع الزائرين الأجانب الذين يصلون لتلك المدينة، حيث كانوا يقدمون أنفسهم للحاكم ويذكرون سبب مجيئهم، ثم يحصلون على تصريح للسماح لهم بالإقامة داخل الإسكندرية. وهناك إشارات إلى أن الحجاج قد لاقوا معاملة طيبة من هذا الحاكم، الذي كان يحسن استقبالهم "ويرحب بهم كأصدقاء له" [١٧٨].

والواقع أنه رغم المعاملة الطيبة التي كان يلقاها الحجاج من جانب ترجمان الإسكندرية، الذي كان يسعى جاهدا لخدمتهم، وتذليل الصعوبات التي تواجههم، وإنهاء إجراءات رحيلهم، إلا أن تأخر هؤلاء الحجاج في دفع مستحقات الترجمان كان يعني عدم اهتمامه بهم، أو إعطائهم العناية اللازمة؛ فيذكر بريدنباخ أنهم لم يستطيعوا الخروج من مسكنهم للتجول في المدينة وزيارة معالمها، نظرا لأنهم كانوا يفتقدون رعاية وحماية الترجمان، الذي لم يعرهم اهتماما بسبب تأخرهم في دفع مستحقاته، بيد أن الأمور قد تغيرت بعدما منحوه الأموال المستحقة له؛ فقد اصطحبهم في اليوم التالي إلى باب الميناء "المؤدي إلى البحر"، حيث توجد السفينة التي ستبحر بهم إلى الغرب، وطلب من الحراس السماح لهم بالدخول أو الخروج متى أرادوا، وعدم التعرض لهم بسوء. ثم قام بعد ذلك بمرافقتهم في زيارة العديد من الكنائس، بالإضافة إلى أخذهم لمكان يعتقد أنه كان موضعا لقصر الإسكندر الأكبر [١٧٩].

ويذكر كذلك فابري أن الترجمان شام بك "رغم أنه كان في أصله رجلا عادلا" ولطيفا في معاملته، إلا أنه أظهر طمعا وجشعا واضحا تجاه هؤلاء الحجاج، ويرجع فابري السبب في ذلك إلى الخطاب الذي كان قد أرسله له كبير التراجمة تغري بردي، والذي يشجعه فيه على أخذ ما يريده من هؤلاء الحجاج الأغنياء؛ لذلك فقد طلب من كل واحد منهم مبلغ ١٣ دوكة نظير الضريبة المفروضة عليهم، وحمايتهم والسماح لهم بالتنقل داخل المدينة بكل حرية. ورغم أن الحجاج أبدوا اعتراضهم على هذا المبلغ المبالغ فيه، قائلين له إن الحجاج السابقين كانوا يدفعون ٦ دوكات فقط، لكن الترجمان أبدى غضبا كبيرا، وتوعدهم بحبسهم في الفندق المقيمين فيه، أو الزج بهم في السجن، في حالة عدم استجابتهم لطلبه [١٨٠]. ورغم أن الحجاج قد فكروا في التقدم بشكواهم إلى حاكم المدينة "ضد هذه الضريبة المجحفة" المفروضة عليهم من قبل الترجمان، إلا أن قنصل الكتلان نصحهم بعدم الإقدام على هذه الخطوة، "نظرا للمكانة الكبيرة والسمعة الطيبة التي كان يتمتع بها الترجمان شام بك لدى الجميع، بصفته رجلا أمينا ومحبوبا، وأن تلك الشكوى ستجعل الجميع في المدينة ينظرون إليهم نظرة سيئة". تلك الكلمات أقنعت الحجاج بدفع الأموال المقدرة عليهم، والتخلي عن فكرة التقدم بشكوى ضد الترجمان [١٨١]. وبعدما تحصل الترجمان على ما طلبه أخذ الحجاج- كما فعل مع بريدنباخ وزملائه- إلى باب ميناء المدينة، وطلب من الحراس ومسئولي الجمارك السماح لهؤلاء الأوربيين بالخروج أو الدخول إلى الميناء متى أرادوا، وألا يتعرضوا لهم بسوء لأنهم قاموا بدفع الضريبة المفروضة عليهم، كما أنهم يحملون خطابات من السلطان تسمح لهم بحرية التجول، "وقد وافق الحراس على ذلك شريطة أن يقوموا بتفتيشهم أثناء الدخول أو الخروج، خشية أن يحملوا معهم أشياء تستحق الضريبة". ثم إن الترجمان قام بمنحهم خطابا آخر يسمح لهم بالتحرك داخل طرقات وأسواق وفنادق المدينة بكل حرية، إلا أنه اشترط عليهم عدم الاقتراب من أي باب من أبواب المدينة باستثناء باب الميناء، كما أنه منعهم من التوجه

إلى الأزقة والحارات التي تقع في أطراف المدينة، فضلا عن أنه كان مجرما محاولة الصعود إلى تل المدينة (وهو برج المراقبة) تحت أي ظرف أو حجة [١٨٢].

ومع قدوم اليوم الذي سيغادر فيه الحجاج المسيحيون مدينة الإسكندرية باتجاه بلادهم فإن الترجمان كان يقوم بالاتفاق مع عدد من أصحاب الحمير والبغال لحمل أغراضهم ومتعلقاتهم إلى الميناء، حيث كانت ترسو السفينة التي ستقلهم، ثم يقوم الترجمان بمرافقتهم حتى باب الميناء، وكثيرا ما كان يطلب من الحراس وموظفي الجمارك عدم تفتيش الحجاج وممتلكاتهم، ويذكر فابري أن الموظفين قد استجابوا لطلبه، وتركوهم يمرون بسهولة وسلام. وتقديرا لهذا الأمر فإن الحجاج قاموا بمنحه مبلغا من المال "كهدية على حسن تعامله". وبمرور الحجاج من باب الميناء تكون مهمة الترجمان قد انتهت؛ فيقوم بتوديعهم، ويطلب منهم عدم الدخول إلى المدينة مرة أخرى مهما كانت الظروف، لأن "خطابات المرور السلطانية" التي معهم تكون منتهية الصلاحية عند هذا الحد [١٨٣].

خاتمة البحث

من خلال هذه الدراسة التي تعرضت للحديث عن الترجمان في العصر المملوكي، وأهم الأدوار والمهام التي اضطلع بها عند استقبال الحجاج الأوربيين القادمين إلى البلاد الشامية والمصرية لزيارة مقدساتهم، نستطيع أن نجمل أهم نتائج البحث فيما يلي:

- رغم انهيار الإمارات الصليبية في بلاد الشام وخروج اللاتين من البلدان الإسلامية نهائيا عقب استيلاء المماليك على مدينة عكا ٦٩٠هـ/١٢٩١م، ورغم المنشورات البابوية المتلاحقة التي تلت هذا الانهيار والدعوة إلى قطع جميع الصلات مع الأراضي المملوكية، إلا أن رحلات الحج إلى "الأماكن المسيحية المقدسة" لم تشهد مثل هذا التشدد ولم تعرف توقفا، واستمر توافد الحجاج القادمين من شتى البلدان الأوربية إلى بلاد الشام ومصر.
- قدوم أفواج الحجيج الغربيين كان يستلزم القيام بعملية تنظيمية من قبل السلطات المملوكية، وتعيين عدد من الموظفين لاستقبال هؤلاء الحجاج والإشراف عليهم، وفي هذا السياق برزت فئة التراجمة الذين كانوا بمثابة الوسطاء بين هؤلاء الوافدين الأوربيين من ناحية وبين السلطات المملوكية والأهالي في بلاد الشام ومصر من ناحية أخرى.
- من خلال روايات الحجاج المسيحيين يتبين لنا كثرة عدد التراجمة الذين كانوا يرافقونهم في بلاد الشام أو في مصر؛ فهم موجودون في كل مدينة كانوا يذهبون إليها، مثل يافا والرملة والقدس وغزة وسيناء والقاهرة والإسكندرية. وقد كان هؤلاء التراجمة معينون مباشرة من قبل السلطات المملوكية للقيام بواجباتهم تجاه هؤلاء الغربيين.
- بداية التواصل بين التراجمة والحجاج الغربيين في بلاد الشام غالبا ما كان يبدأ في مدينة يافا، التي تعد الميناء الرئيس لمدينة بيت المقدس، والتي إليها يفد الحجاج القادمين من جزيرة قبرص، نظرا لقرب المسافة ما بين المكانين.

- إن مهمة التراجمة لم تقتصر على عملية الترجمة اللغوية فحسب، وإنما كانوا بمثابة مرشدين وأدلاء لهؤلاء الحجاج؛ فكانوا يرافقونهم في كل مكان يذهبون إليه، وهم كذلك من يعد لهم جميع التجهيزات أثناء تنقلاتهم من مدينة لأخرى؛ فالحجاج الراغبون في التوجه من القدس إلى دير سانت كاترين مرورا بغزة كان يلزمهم الاتفاق بداية مع الترجمان الكبير بالقدس ليوفر لهم ترجمانا يصطحبهم خلال هذه الرحلة، وكان هذا الأخير مسئولا عن إعداد الدواب التي ستقل الحجاج ومتعلقاتهم، ودفع الضرائب المفروضة عليهم للسلطات، وتأجير مسكنا لهم في المدن التي يصلون إليها، هذا فضلا عن قيام الترجمان بدور المرشد السياحي الذي يصطحب فوج الحجاج إثناء مزاراتهم الدينية والأثرية.
- رغم أن العديد من الحجاج قد أشادوا بحسن معاملة التراجمة في بلاد الشام، والخدمات العديدة التي قدموها لهم، والصعاب التي ذللوها لهم، خاصة أثناء رحلتهم الطويلة من بيت المقدس باتجاه القاهرة، إلا أن الأمر لم يخل بطبيعة الحال من بعض المضايقات والتعسف الذي كان يصدر أحيانا من هؤلاء التراجمة تجاه هؤلاء المسيحيين، وغالبا ما كان الأمر يتعلق بطمع هؤلاء التراجمة وطلبهم لأموال زائدة عن القيمة التي كان قد اتفقوا عليها مع الحجاج أثناء إبرام العقد بين الطرفين، هذا بالإضافة إلى النزل السيئة التي كانوا يؤجرونها للحجاج أثناء فترة تواجدهم بمدينة غزة.
- مهمة ترجمان الشام كانت تنتهي بوصوله إلى المطرية في ضواحي القاهرة، ومنذ تلك اللحظة تبدأ مهام كبير التراجمة بالقاهرة في التعامل مع الحجاج المسيحيين. وقد كان هذا الترجمان صاحب سلطة كبيرة على جميع المسيحيين الوافدين إلى مصر؛ فبدون إذن وتصريح منه لا يمكن لأحد من الحجاج الغربيين الدخول إلى مدينة القاهرة. ويتبين لنا كذلك من روايات الحجاج المكانة الاجتماعية المرموقة التي كان يتبوأها "كبار التراجمة" لدى السلطان المملوكي وداخل المجتمع المصري في ذلك الوقت، وأنهم نجحوا في امتلاك

الأموال الضخمة والقصور الفخمة من وراء تلك الوظيفة. كما أنهم كانوا يعيشون كالأمراء، ويرتدون الملابس الفخمة المصنوعة من الحرير والمطرزة بالذهب.

- يعد تغري بردي واحدا من أهم من تولوا منصب "كبير التراجمة" في البلاط السلطاني، وشهرته تعود إلى الدور الدبلوماسي المهم الذي لعبه في عهد السلطانين قايتباي وقانصوه الغوري بوصفه سفيرا لهما إلى مدينتي البندقية وفلورنسا، فضلا عن توجهه إلى بلاط السلطان العثماني بايزيد الثاني، وإن كانت الشكوك والتهم قد أحاطت به وانتهى به المطاف بإلقاء القبض عليه وسجنه، ورغم إطلاق سراحه لاحقا إلا أنه فقد منصبه ومكانته التي كان عليها. وقد أسهب الحجاج الغربيين في الحديث عن تغري بردي ومنزلته وممتلكاته، بيد أن العلاقات ما بين الطرفين قد شهدت فتورا وتوترا بسبب معاناة الحجاج من طمع وجشع هذا الترجمان.
- تعد مدينة الإسكندرية هي نهاية الرحلة بالنسبة للحجاج الواصلين من مدينة القاهرة، بينما كانت تمثل البداية بالنسبة لأولئك القادمين من الغرب الأوربي إلى ميناء المدينة. وفي كل الأحوال كانت المهمة الأولى التي اضطلع بها ترجمان المدينة تجاه الحجاج هو تسهيل عملية دخولهم أو خروجهم من أبواب المدينة، كما أنه كان يقوم بإنزالهم في أحد الفنادق التابعة للمدن التجارية الأوربية، بالإضافة إلى اصطحابهم في زياراتهم لمعالم المدينة، وأخيرا- عند ساعة رحيلهم- كان يرافقهم حتى باب الميناء، حيث كانت ترسو السفينة التي ستقلهم إلى بلدانهم الأوربية. وبصفة عامة كانت علاقات الترجمان بالحجاج تسودها المودة والاحترام، ما لم يعكر صفوها شائبة؛ كتأخر هؤلاء الحجاج في تسديد مستحقات الترجمان.

الهوامش:

[١] عن أحداث استيلاء الأشرف خليل على عكا وطرده للصليبيين من بلاد الشام أنظر: المقريزي، *السلوك لمعرفة دول الملوك*، (تحقيق) محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ٢٢٣/٢-٢٢٤.

[2] **Emile Travers, *Deux pèlerinage en Terre sainte au XVe siècle*, (Extrait de la Revue nobiliaire, 1869), Libraire Héraldique de J. Dumoulin, Paris, 1869, p. 1.**

[٣] علي السيد علي، *القدس في العصر المملوكي*، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٢١٣، ٢١٥.

[٤] *التعريف بالمصطلح الشريف*، (عني بتحقيقه وضبطه) محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨، ص ٧٠، ٩١؛ *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*، (تحقيق) كامل سلمان الجبوري، الجزء الثالث (ممالك الشرق الإسلامي والترك ومصر والشام والحجاز)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠، ١٥٥/٣.

[٥] *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*، (شرح وتعليق) محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، (د.ت)، ٢٩٣/٧-٢٩٤، ٣٣/٨-٣٤، ١٢١، ١٢٣-١٢٤.

[٦] *السلوك لمعرفة دول الملوك*، ١٦٥/٣، ٣٧١، ٢٩١/٤، ٨٠/٥.

[٧] *إنباء الغمر بأبناء العمر*، (تحقيق وتعليق) حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٩-١٩٩٨م، ٢١٢/١، ٢٩٥، ٢٤٠/٤؛ *الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة*، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ١٩٧/٢، ٣٥٣.

[٨] *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع*، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م، ١٦/٢، ٩٣/٤، ١٠٩/٩، ١٨٢/١٠.

[٩] *مفاكهة الخلان في حوادث الزمان*، (وضع حواشيه) خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ص ١٨، ١٠٤، ١١٢، ٣٦٦.

[١٠] *صبح الأعشى*، ١٢٣/٨.

[١١] *المصدر السابق*، ١٦٥/١.

[١٢] *المصدر السابق*، ٦٨/٦.

[١٣] القدس أو بيت المقدس يستمد اسمه من التطهير والتنزيه، وقيل إن المراد بأرض المقدس أي المبارك. وتوجد إشارات في العديد من الآيات القرآنية لهذا المكان المقدس الذي كان مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلة الإسراء والمعراج، هذا فضلا عن الأحاديث العديدة التي وردت في فضله. وعرفت المدينة بأسواقها المتعددة، وبناياتها الحسنة، كما أنها تتميز بكثرة خيراتها. (أنظر: ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ١٦٦/٥-١٧٢). كما أشار القزويني إلى قدسية هذه المينة بوصفها "محل الأنبياء وقبلة الشرايط ومهبط الوحي". وروي عن ابن عباس قوله إن بيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء، "وما فيه موضع شبر إلا وصلى فيه نبي أو قام فيه ملك". وهناك العديد من الآثار المسيحية التي توجد بالقدس، والتي كان يأتي لزيارتها الحجاج المسيحيون منها: محراب مريم عليها السلام "الذي كانت الملائكة تأتيها فيه بفاكهة الشتاء في

الصيف وبفاكهة الصيف في الشتاء"، وبها كذلك محراب زكريا عليه السلام، حيث بشرته الملائكة فيه بيحيي عليه السلام. ويوجد بالقدس كذلك كنيسة القمامة أو القيامة، وهي تقع في وسط المدينة وكان يعظمها النصارى، وهي "لا ينضبط صفتها حسنا وعمارة وتنميقا وكثرة مال". (أنظر: *آثار البلاد وأخبار العباد*، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص ١٥٩-١٦٣). هذا فضلا عن أنه يوجد بها كنيسة صهيون التي يقال إن بها نزلت المائدة على سيدنا عيسى عليه السلام وأتباعه من الحواريين. بل إن المسيحيين الغربيين في حقبة العصور الوسطى كانوا يعتقدون أن زيارة بعض الأماكن المقدسة في تلك المدينة تمنح الشخص توبة وتحللا كاملا من الذنوب. (أنظر: علي السيد علي، *المرجع السابق*، ص ٩).

[١٤] الناصرة قرية ببلاد الشام، بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا، فيها كان مولد المسيح عليه السلام، ومنها اشتق اسم النصارى. أما أهل القدس فينكرون ذلك، ويقولون إن مولد المسيح عليه السلام ببيت لحم. أنظر: ياقوت الحموي، *المصدر السابق*، ٢٥١/٥.

[١٥] الخليل بلدة تقع بالقرب من بيت المقدس، بينهما مسيرة يوم واحد. وبها حصن وعمارة وسوق، وفيها قبر الخليل إبراهيم عليه السلام، لذلك سمى هذا الموضع باسمه، رغم أن سمها الأصلي هو حبرون. (أنظر: ياقوت الحموي، *المصدر السابق*، ٣٨٧/٢). أما ابن بطوطة الذي زارها فيقول إنها مدينة صغيرة في مساحتها لكنها كبيرة في قدرها وشرفها، وبها مسجد "أنيق الصنعة، محكم العمل، بديع الحسن، سامي الارتفاع، مبني بالصخر المنحوت ... وفي داخل المسجد الغار المكرم المقدس، فيه قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام". (أنظر: *رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"*، (حققه وقدم له) عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧م، ٢٣٩/١).

[16] F. Fabri, *Voyage en Egypte (1483)*, Traduit du Latin et annoté par Jacques Masson, éd. IFAO, Le Caire, 1975, p. 896.

[١٧] غزة مدينة في أقصى بلاد الشام من ناحية مصر، وهي من نواحي فلسطين وتقع غربي عسقلان. (أنظر: ياقوت الحموي، *المصدر السابق*، ٢٠٢/٤). ووصفها القزويني بأنها تقع "على طرف رمال مصر"، وأن معاوية بن أبي سفيان هو من فتحها على عهد الخليفة عمر بن الخطاب. أنظر" (*آثار البلاد وأخبار العباد*، ص ٢٢٧). أما الرحالة ابن بطوطة الذي قام بزيارتها فيقول إنها أول مدينة يصل إليها المسافر من مصر باتجاه الشام. ويصفها بأنها "متسعة الأقطار، كثيرة العمارة، حسنة الأسواق، بها المساجد العديدة ولا سور عليها". (أنظر: *الرحلة*، ٢٩٣/١). ومن خلال هذا الوصف يتبين لنا أن مدينة غزة اكتسبت أهميتها عند الحجاج الغربيين المسيحيين بفضل موقعها الاستراتيجي، الذي جعل منها محطة رئيسة في رحلتهم من بلاد الشام إلى مصر لزيارة الأماكن المسيحية في دير سانت كاترين بسيناء، ثم من هناك التوجه لزيارة القاهرة.

[18] George Lengherand, *Voyage de George Lengherand (1485-1486)*, Avec introduction et notes par : Le Marquis de Godefroy Ménilglaise, Imprimeurs de la Société des Bibliophiles, Mons, 1861, p. 146.

[١٩] يافا مدينة على ساحل بحر الشام، وهي من أعمال فلسطين، وتقع بين قيسارية وعكا. أنظر: ياقوت الحموي، *المصدر السابق*، ٤٢٦/٥.

[20] Pero Tafur, *Travels and Adventures of Pero Tafur (1435-1439)*, Translated and Edited with an Introduction by Malcolm Letts, Published by George Routledge and Sons, LTD., London, 1926, p. 53.

[21] Bertrandon de la Broquière, *Le voyage d'Outremer de Bertrandon de la Broquière*, Publié et Annoté par : Ch. Schefer, Ernest Leroux editor, Paris, 1892, p. 10.

[٢٢] الرملة مدينة كبيرة تقع بفلسطين، تبعد عن بيت المقدس حوالي ثمانية عشر يوما. وينسب إليها جماعة من أهل العلم. وقد كانت رباطا للمسلمين، إلا أنه نتيجة للخطر الصليبي، وخوفا من استيلائهم عليها، فإن صلاح الدين قام بتخريبها. (أنظر: ياقوت الحموي، *المصدر السابق*، ٦٩/٣-٧٠). وقد زارها ابن بطوطة، ويذكر أنها مدينة كبيرة كثيرة الخيرات، حسنة الأسواق، وبها الجامع الأبيض، الذي يقال إن في قبلته ثلاثمائة من الأنبياء مدفونين، كما أنه يسكنها عدد كبير من كبار الفقهاء. (أنظر: ابن بطوطة، *المصدر السابق*، ٢٥٤/١).

[23] Louis de Rochechouart, "Journal de voyage à Jérusalem", in *croisades et pèlerinages, récits, chroniques et voyages en Terre-Sainte XIIe-XVIe siècle*, Edition établie sous la direction de Danielle Regnier-Bohler, Paris, 1997, p. 1137-1138.

[24] C. Casola, *Canon Pietro Casola's Pilgrimage to Jerusalem in the year 1494*, By: M. Margaret Newett, Manchester, 1907, p. 237.

[25] Louis de Rochechouart, *Op. cit.*, p. 1140-1141.

[٢٦] علي السيد علي، *المرجع السابق*، ص ٢١٧.

[27] C. Casola, *Op. cit.*, p. 94.

[٢٨] الدوكة هي العملة الذهبية الشهيرة لمدينة البندقية الايطالية في العصور الوسطى، وقد كانت هي العملة الأوربية الوحيدة المعترف والمتعامل بها داخل أراضي الدولة المملوكية. وقد بلغت تلك العملة شهرة كبيرة في ذلك الوقت حتى أنها وجدت لها سوقا رائجا في معظم بلدان الشرق. أنظر:

E. Piloti, *L'Égypte au commencement du XVe siècle d'après le traité d'Emmanuel Piloti de Crète*, Le Caire, 1932, p. 49.

ويذكر القلقشندي أن الدوكات عبارة عن دنانير كانت تأتي من مدينة البندقية الايطالية، وهي معلومة الأوزان؛ "كل دينار منها معتبر بتسعة عشر قيراطا ونصف قيراط من المصري... وهذه الدنانير مشخصة على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين". وقد سميت بالدوكات لأن الملك عندهم اسمه دوك. أنظر: *المصدر السابق*، ٥٠٨/٣.

[٢٩] الجروس *gros* هي جزء من الدوكة، والدوكة الواحدة تعادل ٢٤ جروس. أنظر:

Pierre Senebier, *Traités des changes et des arbitrages*, Paris, 1797, p. 145.

[٣٠] يعد دير سانت كاترين من أشهر الأبنية في جزيرة سيناء، ويسمى كذلك بدير طور سيناء. بناه الإمبراطور جستنيان حوالي عام ٥٤٥م كي يكون معقلا ومأوى لرهبان سيناء. وهو يقع في سفح قمة من قمم طور سيناء، ويرتفع حوالي ٥٠١٢ قدم من سطح البحر. وقد بني على اسم القديسة كاترينا، لذلك يسمى "دير القديسة كاترينا". ويحتوي الدير على عدد كبير من الأبنية والمنشآت؛ منها

"الكنيسة الكبرى"، و"كنيسة العليقة"، إلى جانب مخازن الغلال والمطابخ، وغرف النزلاء والرهبان، وبعض القاعات والمكتبة التي تحتوي كنوزا من الوثائق والمخطوطات بمختلف اللغات. أنظر: نعوم شقير، *تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها*، (تقديم) محمد إبراهيم أبو سليم، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م، ص ٢٠٥-٢٣٦.

[31] **Bertrandon de la Broquière, *Op. cit.*, p. 26.**

[32] **Bertrandon de la Broquière, *Op. cit.*, p. 18.**

[33] **M. Ch. Schefer, *Recueil de voyages et de documents pour servir à l'histoire de la géographie depuis le XIIIe jusqu'à la fin du XVIe siècle,* Vol. II (Le voyage de la sincte cyté de Hierusalem), Publié par : M. Ch. Schefer, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1882, p. 99.**

[34] **M. Ch. Schefer, *Op. cit.*, p. 87.**

[35] **George Lengherand, *Op. cit.*, p. 142-143.**

[٣٦] المطرية قرية من قرى مصر، وبها الموضع الشهير الذي يزرع به شجر البلسان الذي يستخرج منه الدهن. "وليس في الدنيا موضع ينبت فيه البلسان ويستحكم دهنه إلا بمصر فقط". ويقع في جانبها الشمالي عين شمس القديمة مختلطة ببساتينها. أنظر: ياقوت الحموي، *المصدر السابق*، ١٤٩/٥.

[37] **Récit anonyme d'un voyage à Jérusalem et au mont Sinaï, in *croisades et pèlerinages, récits, chroniques et voyages en Terre-Sainte XIIe-XVIe siècle*, Edition établie sous la direction de Danielle Regnier-Bohler, Paris, 1997, p. 1199.**

[38] ***Récit anonyme d'un voyage,* p. 1200.**

[39] **H. Moranville, "Un pèlerinage en Terre Sainte et au Sinaï au XVe siècle", in *Bibliothèque de l'école des Chartes*, Anée 1905, Vol. 66, N. 1, p. 82.**

[40] **H. Moranville, *Op. cit.*, p.85, 86.**

[41] **H. Moranville, *Op. cit.*, p. 86.**

[42] **Jules de Salnt-Genols, *Jean Van Berchem, voyageur barabançon du XVe siècle*, (Extrait du Messager des sciences historiques de Belgique), Imprimerie et Lithographie de L. Hebbelynck, Gand, 1856, p. 7-8.**

[43] **Bertrandon de la Broquière, *Op. cit.*, p. 14-15.**

[44] **Bertrandon de la Broquière, *Op. cit.*, p. 16.**

[45] ***Ibid*.**

[46] ***Récit anonyme d'un voyage,* p. 1206.**

[47] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 794.**

[48] ***Récit anonyme d'un voyage,* p. 1206.**

[49] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 795.**

[50] Ogier d'Anglure, *Le saint voyage de Jherusalem du seigneur d'Anglure,* Publié par : François Bonnardot et Auguste Longnon, éd. Librairie de Firmin Didot, Paris, 1878, p. 44 ; Joos Van Ghistele, *Voyage en Egypte (1482-1483),* Traduction et notes de Renée Bauwens-Préaux, IFAO, Le Caire, 1976, p. 3.

[51] Bertrandon de la Broquière, *Op. cit.,* p. 15.

[٥٢] كانت الحمير تعد بمثابة وسيلة المواصلات الأولى والأكثر انتشارا داخل المدن في العصر المملوكي، وربما كانت في بعض الأماكن هي الوسيلة الوحيدة التي يستخدمها الناس في تنقلاتهم داخل المدن وخارجها؛ لذلك فقد كانت توجد بعض المواقف الخاصة بحمير الأجرة التي عرف أصحابها باسم "المكارية". أنظر: قاسم عبده قاسم، *عصر سلاطين المماليك*، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ١٤٨.

[53] Joos Van Ghistele, *Op. cit.,* p. 4-5.

[54] F. Fabri, *Op. cit.,* p. 884.

[٥٥] الطور بلدة تقع على ساحل بحر القلزم، "وهي مكان حط وإقلاع لمراكب الديار المصرية وما يصل إليها من اليمن وغيرها؛ وذلك بسبب قرب المراكب فيه من بر الحجاز حتى لا يغيب البر عن المسافر فيه". أنظر: القلقشندي، *المصدر* السابق، ٢٥١/٣.

[56] F. Fabri, *Op. cit.,* p. 884.

[57] H. Moranville, *Op. cit.,* p. 75, 98.

[58] H. Moranville, *Op. cit.,* p. 98.

[٥٩] هو قايتباي المحمودي الأشرفي أبو النصر سيف الدين (٨١٥-٩٠١هـ/١٤٢١-١٤٩٦م)، من سلاطين مصر الجراكسة. كان من المماليك واشتراه السلطان برسباي وهو صغير من الخوجة محمود سنة ٨٣٩هـ، ثم انتقل إلى الظاهر جقمق بالشراء، فاعتقه واستخدمه في جيشه. استطاع الوصول إلى مرتبة أتابك العساكر في عهد الظاهر تمربغا عام ٨٧٢هـ. ولما خلع المماليك تمربغا في هذه السنة بايعوا قايتباي بالسلطنة. كانت فترة حكمه مليئة بالأحداث والحروب، وفي أيامه كانت بداية ظهور خطر العثمانيين الذين قاموا بمهاجمة حلب وما حولها، وأنفق قايتباي أموالا كثيرة على إعداد جيشه لقتالهم. وقد عرف قايتباي بشجاعته وفروسيته، كما كان مقبلا على العلم والتصوف، وترك كثيرا من آثار العمران في مصر والشام والحجاز. أنظر: الزركلي، *الأعلام*، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ١٨٨/٥.

[٦٠] الرهبنة الفرنسيسكانية، ويعرف رهبانها باسم الفرنسيسكان، هي رهبنة في الكنيسة الكاثوليكية، تأسست على يد القديس فرنسيس الأسيزي (١١٨١-١٢٢٦) في شمال إيطاليا في بدايات القرن الثالث عشر الميلادي، وقد ثبت قوانينها ووقف إلى جانبها البابا إينوسنت الثالث، الذي رأى فيها وسيلة لمواجهة "الزنادقة"- بحسب رأيه- الذين كانوا يبدون اعتراضا على الثروة العظيمة للكنيسة. والرهبنة الفرنسيسكانية كانت تعتمد على روحانية القديس فرنسيس، والقوانين التي وضعها بشكل أساسي. تتألف الرهبنة من ثلاث فروع هي رهبنة رجالية، ورهبنة نسائية، وما يعرف بالرهبنة الثالثة التي ينضم إليها المدنيون، الذين يبقون في العالم لا في الدير، ويحق لهم الزواج وإنما يلتزمون بفروض وصلوات الرهبنة وتأملاتها. أنظر:

Edward English, *Encyclopedia of the Medieval World*, Publisher: Facts On File, New York, 2005, p. 271-273.

[61] ***Récit anonyme d'un voyage*, p. 1200-1202.**

[٦٢] **دمشق هي البلد المشهورة وقصبة بلاد الشام، "وهي جنة الأرض" لحسن عمارتها، ونضارة بقعها، وكثرة فاكهتها ومياهها. وهناك روايات عدة حول من قام ببنائها وأصل تسميتها؛ فقيل إنها سميت بذلك لأنهم دمشقوا في بنائها أي أسرعوا، وقيل بل سميت بذلك نسبة إلى دماشق بن قاني بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، بينما يقول آخرون إن بانيها هو جيرون بن سعد بن عاد بن إرم. أنظر: ياقوت الحموي، *المصدر السابق*، ٤٦٣/٢ وما بعدها.**

[63] **Bertrandon de la Broquière, *Op. cit.*, p. 66-68.**

[64] **Martin Von Baumgarten, *The Travels of Martin Baumgarten, A Nobleman of Germany, Through Egypt, Arabia, Palestine and Syria*, Vol. 1, Published by Awnsham and John Churchill, London, 1704, p. 458.**

[65] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 805.**

[66] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 812.**

[67] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 825.**

[68] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 881-882.**

[69] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 893.**

[70] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 426-427.**

[٧١] **Médin أو médin هي عملة فضية مصرية الواحد منها يساوي ٣ اسبر aspres. أنظر:**

J. Peuchet, *Vocabulaire des termes de commerce*, Paris, 1801, p. 138.

[72] ***Récit anonyme d'un voyage*, p. 1206-1207**

[73] ***Op. cit.*, p. 1205-1206.**

[74] ***Op. cit.*, p. 1206-1207.**

[75] ***Op. cit.*, p. 1207.**

[76] ***Op. cit.*, p. 1209.**

[77] **C. Casola, O*p. cit.*, p. 225.**

[78] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 798-799.**

[79] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 800.**

[80] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 805.**

[81] **Jules de Salnt-Genols, *Op. cit.*, p. 8.**

[82] **George Lengherand, *Op. cit.*, p. 148-149.**

[83] **George Lengherand, *Op. cit.*, p. 186.**

[٨٤] **اليعاقبة هم الأقباط أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح عليه السلام، وهم ينسبون إلى يعقوب البراذعي أحد دعاتهم. وذكرت بعض المصادر أن هذا الاسم نسبة إلى البطريرك ديسقورس نفسه لأن اسمه قبل تولي البطريركية "يعقوب"، كما أشارت هذه المصادر أنه يحتمل أن يكون الاسم نسبة إلى أحد تلاميذ ديسقورس واسمه "يعقوب". وقد كان اليعاقبة (الأقباط الأرثوذكس) في مصر المملوكية يمثلون غالبية المسيحيين في البلاد، كما كان لهذه الطائفة بطريرك هو المسئول عن تنظيم الشئون**

الداخلية لجماعته، فضلا عن تنظيم العلاقات مع السلطة المملوكية. أنظر، قاسم عبده قاسم، *المرجع السابق*، ص ٨٧.

[85] **Symon Semeonis, "Le voyage de Symon Semeonis d'Irlande en Terre-Sainte", in *croisades et pèlerinages, récits, chroniques et voyages en Terre-Sainte XIIe-XVIe siècle*, Edition établie sous la direction de Danielle Regnier-Bohler, Paris, 1997, p. 992.**

[86] **Symon Semeonis, *Op. cit.*, p. 992.**

[87] **H. Moranville, *Op. cit.*, p. 98.**

[88] **Martin Von Baumgarten, *Op. cit.*, p. 443.**

[89] **Bernard de Breydenbach, *Les saintes pérégrinations de Bernard de Breydenbach (1483)*, Texte et traduction annotée par le Père F. Larrivaz, Imprimerie nationale, Le Caire, 1904, p. 46.**

[90] **Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 48-49.**

[91] **Symon Semeonis, *Op. cit.*, p. 992.**

[92] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 896-897.**

[93] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 896 ; Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 39.**

[94] ***Récit anonyme d'un voyage*, p. 1223.**

[95] **George Lengherand, *Op. cit.*, p. 75.**

[96] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 897.**

[97] **H. Moranville, *Op. cit.*, p. 98-99.**

[98] **Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 40.**

[99] **Martin Von Baumgarten, *Op. cit.*, p. 446.**

[100] **Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 40, 45.**

[101] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 901-902.**

[102] **Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 43.**

[103] **George Lengherand, *Op. cit.*, p. 179.**

[104] **Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 46.**

[105] **Joos Van Ghistele, *Op. cit.*, p. 16-17.**

[106] **Martin Von Baumgarten, *Op. cit.*, p. 441.**

[107] **Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 50-51 ; Martin Von Baumgarten, *Op. cit.*, p. 442, 445-446.**

[108] **Symon Semeonis, *Op. cit.*, p. 992.**

[109] **Ch. Defrémery, *Voyage d'Ibn Batoutah*, Cambridge University Press, New York, 2012, p. XL.**

[110] **Ogier d'Anglure, *Op. cit.*, p. 65-66.**

[111] **Ogier d'Anglure, *Op. cit.*, p. 69.**

[112] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 437-438.**

١١٣ هو السلطان برسباي الدقماقي الظاهري (٧٦٦-٨٤١هـ/١٣٦٥-١٤٣٨م) الذي يعود إلى أصول جركسية. كان من مماليك الأمير دقماق المحمدي وأهداه إلى الظاهر برقوق، فاعتقه واستخدمه في الجيش. وأخذ برسباي يترقى حتى تولى نيابة طرابلس الشام في عهد السلطان المؤيد شيخ. اعتقل بقلعة المرقب مدة طويلة ثم أطلق، ثم اعتقل بقلعة دمشق وعفا عنه السلطان ططر وقربه منه وجعله دودارا كبيرا له بمصر. ولما توفي الظاهر ططر وبويع لابنه الصالح محمد تولى برسباي تدبير أمور الملك عدة أسابيع، ثم خلع الصالح وأعلن نفسه سلطانا وتلقب بالملك الأشرف وذلك سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م، فأطاعه الأمراء وهدأت أمور الدولة في عهده. وقد قام برسباي بإنشاء العديد من المدارس والمؤسسات الاجتماعية. وعلى الصعيد الخارجي قام بغزو جزيرة قبرص وأخضعها لسلطانه بعد أن قام بأسر ملكها. أنظر: الزركلي، *المرجع السابق*، ٤٨/٢.

١١٤ وصل يوحنا الثاني إلى كرسي الحكم في جزيرة قبرص عام ١٤٣٢م خلفا لأبيه الملك جانوس، وكان كذلك يحمل لقب ملك بيت المقدس وأرمينيا. وقد كان مولده سنة ١٤١٤م، وتوفي عام ١٤٥٨م وعمره ٤٤ عاما. أنظر:

Mas Latrie, *Geneologie des rois de Chypre de la famille de Lusignan, (Extrait de l'Archivio Veneto)*, Imprimerie de Marco Visintini, Venise, 1881, p. 44.

ولما تولى يوحنا الحكم قام السلطان برسباي- الذي كانت تخضع الجزيرة لسيطرته منذ عهد الملك جانوس- بإرسال خلعة الولاية للملك الجديد، وطلب منه عدم التأخر في إرسال الجزية المفروضة على مملكته. وقد ظل يوحنا محافظا على ولائه وخضوعه للسلطة المملوكية وإرسال الضريبة السنوية المقررة عليه حتى وفاته. أنظر: سعيد عاشور، *قبرص والحروب الصليبية*، الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٢٢-١٢٣.

115 P. Tafur, *Op. cit.*, p. 72.

١١٦ وصل جانوس إلى كرسي الحكم في جزيرة قبرص عام ١٣٩٨م، كما أنه كان يحمل لقب ملك بيت المقدس وملك أرمينيا، وهو الابن الأكبر للملك جاك الأول. كان مولده في مدينة جنوة عام ١٣٧٤م، وقد كان عمره ٢٤ عاما عند تنصيبه ملكا للجزيرة. وقد كانت وفاته عام ١٤٣٢م وعمره ٥٨ عاما. أنظر: **Mas Latrie, *Op. cit.*, p. 39.**

من ناحية أخرى، وفيما يخص علاقة الملك جانوس بالسلطان المملوكي برسباي، فالواقع أنه نتيجة لقيامه بأعمال القرصنة ضد السواحل المصرية والشامية ومحاولة استنجاده بملوك الفرنج ضد السلطة المملوكية، فقد كان برسباي مقتنعا بضرورة إخضاع تلك الجزيرة لنفوذه؛ فقام بإرسال حملات ثلاث باتجاهها خلال الفترة من ٨٢٧هـ/١٤٢٤م إلى ٨٢٩هـ/١٤٢٦م، وقد كللت تلك المحاولات بنجاح كبير، وتمكنت من إلحاق الهزيمة بالقبارصة، بل وأسر الملك جانوس، وأصبحت قبرص من الآن فصاعدا خاضعة وتابعة لسلطنة المماليك. عن تفاصيل الحملات الثلاث التي أرسلها السلطان الأشرف برسباي باتجاه جزيرة قبرص أنظر: المقريزي، *المصدر السابق*، ١٠٠/٧ وما بعدها.

117 P. Tafur, *Op. cit.*, p. 67, 72.

118 P. Tafur, *Op. cit.*, p. 72.

119 P. Tafur, *Op. cit.*, p. 73.

120 P. Tafur, *Op. cit.*, p. 77, 81.

121 Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 60; F. Fabri, *Op. cit.*, p. 510.

[122] George Lengherand, *Op. cit.*, p. 187.
[123] Joos Van Ghistele, *Op. cit.*, p. 22-23.
[124] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 510.
[125] Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 62 ; F. Fabri, *Voyage en Egypte*, p. 512.
[126] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 579.
[127] George Lengherand, *Op. cit.*, p. 182.
[128] Martin Von Baumgarten, *Op. cit.*, p. 441.
[129] Joos Van Ghistele, *Op. cit.*, p. 17.
[130] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 402.
عن هذه الرواية أنظر كذلك:
Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 46; Martin Von Baumgarten, *Op. cit.*, p. 441.
[١٣١] أحمد دراج، *المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي*، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٢٠.
[١٣٢] هو السلطان قانصوه بن عبد الله الظاهري (نسبة إلى الظاهر خشقدم) الأشرفي (نسبة إلى الأشرف قايتباي) الغوري أبو النصر (٨٥٠-٩٢٢هـ/١٤٤٦-١٥١٦م)، من سلاطين مصر الجراكسة. خدم السلاطين وتولى منصب حجابة الحجاب بحلب قبل أن يبايع بالسلطنة بقلعة الجبل سنة ٩٠٥هـ. قام ببناء العديد من المنشآت والآثار، وكان ملما بالموسيقى والأدب. عرف بشجاعته ودهائه وفطنته. وقد كانت نهايته على يد السلطان العثماني سليم الأول، الذي ألحق به الهزيمة في معركة مرج دابق بالشام، ويقال إنه مات قهرا من تلك الهزيمة. أنظر: الزركلي، *المرجع السابق*، ١٨٧/٥.
[١٣٣] أحمد دراج، *المرجع السابق*، ص ١٢٠-١٢١.
[134] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 111-112.
[135] Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 62.
[136] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 407-408.
[137] Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 4٦.
[138] *Ibid*.
[139] Martin Von Baumgarten, *Op. cit.*, p. 442-443.
[140] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 408-410.
[141] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 414-417, 420.
[142] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 411.
[143] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 412.
[144] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 412-413.
[145] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 413-414.
[146] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 434-435.
[147] Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 40 ; F. Fabri, *Op. cit.*, p. 897.

[148] **John Wansbrough, "A Mamluk Ambassador to Venice in 913/1507", in *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, University of London, Vol. 26, No. 3, 1963, p. 508-509.**
[149] **John Wansbrough, *Op. cit.*, p. 508.**
[150] **John Wansbrough, *Op. cit.*, p. 516.**
[١٥١] **أحمد دراج، *المرجع السابق*، ص ١٤٠.**
[152] **John Wansbrough, *Op. cit.*, p. 510.**
[١٥٣] **أحمد دراج، *المرجع السابق*، ص ١٢٩-١٣٠.**
[154] **John Wansbrough, *Op. cit.*, p. 510.**
بايزيد الثاني هو السلطان العثماني الثامن، حكم خلال الفترة من ٨٨٦هـ/١٤٨١م وحتى ٩١٨هـ/١٥١٢م، وقد تولى الحكم وعمره ثلاثة وثلاثون عاما، ومن ألقابه الولي والعدل والصوفي. وقد كان قبيل وفاة والده السلطان محمد الفاتح واليا على آماسيا، ثم عقب وفاة والده نشأ صراع بينه وبين أخيه الأمير جم- الذي كان واليا على كارامان- للوصول إلى كرسي الحكم، وقد انقسم رجال الدولة فيما بينهم حول تأييد بايزيد وجم، إلا أن قوات الإنكشارية وقفت إلى جانب بايزيد وأيدته في الوصول للحكم، وبالفعل استتب له الأمر بعد فترة صراع وحروب مع جم، واضطر هذا الأخير إلى الهروب خارج البلاد. وقد بلغت البحرية العثمانية قوة كبيرة في عهد السلطان بايزيد؛ حيث استطاعت أن تقهر قوة البندقية البحرية، وترسخت السيادة العثمانية على طول الشواطئ الغربية للبحر الأسود. كما أنه في عهد بايزيد بدأت العلاقات ما بين العثمانيين والمماليك تشهد توترا كبيرا، ثم بدأت سلسلة من المعارك بين الطرفين، والتي انتهت في نهاية المطاف بهزيمة وسقوط المماليك وسيطرة العثمانيين على مصر وبلاد الشام على عهد السلطان سليم الأول. أنظر: صالح كولن، *سلاطين الدولة العثمانية*، (ترجمة) منى جمال الدين، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٤م، ص ٨٢-٨٩.
[١٥٥] **عن هذه الزيارة يذكر المؤرخ ابن اياس أنه في شهر ذي القعدة ٩١١هـ سافر الترجمان تغري بردي إلى بلاد الفرنج، وأخذ معه كتابا لدوق البندقية (البترك)، خاصة وأنه كان قد تزايد قرصنة ومهاجمة الفرنج للسواحل وأخذ أموال التجار. أما عن عودة تغري بردي فيذكر ابن اياس أنه في شهر جمادى الأولى ٩١٣هـ حضر تغري بردي الترجمان، بعدما أقام ببلاد الفرنج لمدة سنتين، "فلما حضر أخلع عليه السلطان وأقره على وظيفته". أنظر: *بدائع الزهور في وقائع الدهور*، (تحقيق) محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣-١٩٨٤، ٩١/٤، ١٢٠.**
[156] **Martin Von Baumgarten, *Op. cit.*, p. 436.**
[157] **Martin Von Baumgarten, *Op. cit.*, p. 441-442.**
[١٥٨] **ابن اياس، *المصدر السابق*، ٢١٠/٤.**
[١٥٩] **ابن اياس، *المصدر السابق*، ٣١٦/٤؛ John Wansbrough, *Op. cit.*, p. 513**
[160] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 402-403, 513.**
[161] **F. Fabri, *Op. cit.*, p. 402-404.**
[162] **Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 46.**
[163] **Martin Von Baumgarten, *Op. cit.*, p. 438.**
[١٦٤] **الأشرفية: هي العملة التي تم ضربها في عهد السلطان الأشرف برسباي منذ عام ٨٢٩هـ، والتي عرفت باسم "الدينار الأشرفي". وكان سبب قيام برسباي بهذا الأمر هو الخلل الذي حدث للنقد آنذاك،**

بالإضافة إلى سيطرة الدوكات البندقية "الافرنتي" داخل الأسواق المصرية والشامية، فأبطل السلطان التعامل بالافرنتي، وأمر "أن يعاد سبكه بدار الضرب، ثم يضرب على السكة الإسلامية". أنظر: المقريزي، *المصدر السابق*، ١٢٩/٧.

[165] Martin Von Baumgarten, *Op. cit.*, p. 460-461.
[166] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 580.
[167] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 512-513, 519, 662.
[168] Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 64.
[169] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 519-520, 580.
[170] Symon Semeonis, *Op. cit*., p. 973 ; Ch. Defrémery, *Op. cit*., p. XXXVIII.
[171] Ch. Defrémery, *Op. cit*., p. XXXIX.
[172] Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 67.
[173] Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 67.
[174] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 663, 665.
[175] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 663.
[176] H. Moranville, *Op. cit*., p. 101-102.
[177] Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 67-68.
تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن ما تم ذكره من أن فندق الكتالونيين- مع أواخر القرن ١٥م- أصبح المكان الرئيس لاستقبال الحجاج تظل هي القاعدة، بيد أن الأمور لم تجر دوما على نمط واحد كما يقول هايد، ففي بعض الأحيان كان يأتي أحد الحجاج على متن سفينة بندقية أو مزودا بخطابات توصية لأحد التجار البنادقة بمدينة الإسكندرية، فكان نزوله في هذه الحالة يكون في فندق البنادقة، وهذا الأمر قد حدث على سبيل المثال مع الحجاج الألمان هارف وتوشر وبومجارتي. أنظر: ف. هايد، *تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى*، (ترجمة) أحمد رضا محمد، (مراجعة) عز الدين فوده، ج ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ٣٠٦/٣.
[178] Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 68 ; F. Fabri, *Op. cit.*, p. 666.
[179] Bernard de Breydenbach, *Op. cit.*, p. 69, 71-72.
[180] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 673-674.
[181] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 679.
[182] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 683-685.
[183] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 773-775.

مصادر ومراجع البحث

أولا: المصادر العربية

ابن اياس (محمد بن أحمد)، *بدائع الزهور في وقائع الدهور*، (تحقيق) محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣-١٩٨٤.

ابن بطوطة (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي)، *رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"*، (حققه وقدم له) عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧م.

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد)، *الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة*، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

-----، *إنباء الغمر بأبناء العمر*، (تحقيق وتعليق) حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٩-١٩٩٨م.

السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن)، *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع*، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.

ابن طولون الصالحي (شمس الدين محمد بن علي)، *مفاكهة الخلان في حوادث الزمان*، (وضع حواشيه) خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م،

ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى)، *التعريف بالمصطلح الشريف*، (عني بتحقيقه وضبطه) محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.

-----، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*، (تحقيق) كامل سلمان الجبوري، الجزء الثالث (ممالك الشرق الإسلامي والترك ومصر والشام والحجاز)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠.

القلقشندي (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي)، *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*، (شرح وتعليق) محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي)، *السلوك لمعرفة دول الملوك*، (تحقيق) محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله)، معجم *البلدان*، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.

<u>**ثانيا المراجع العربية والمعربة**</u>

دراج (أحمد)، *المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي*، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١.

الزركلي (خير الدين)، *الأعلام*، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.

شقير (نعوم)، *تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها*، (تقديم) محمد إبراهيم أبو سليم، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.

عاشور (سعيد)، *قبرس والحروب الصليبية*، الهيئة المصرية العامة للكتاب–القاهرة، ٢٠٠٢.

علي (علي السيد)، *القدس في العصر المملوكي*، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦م.

قاسم (قاسم عبده)، عصر *سلاطين المماليك*، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م.

كولن (صالح)، *سلاطين الدولة العثمانية*، (ترجمة) منى جمال الدين، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٤م.

هايد (ف.)، *تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى*، (ترجمة) أحمد رضا محمد، (مراجعة) عز الدين فوده، ج ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.

ثالثا: المصادر الغربية

Anglure (Ogier d'), *Le saint voyage de Jherusalem du seigneur d'Anglure*, Publié par : François Bonnardot et Auguste Longnon, éd. Librairie de Firmin Didot, Paris, 1878.

Baumgarten (Martin Von), *The Travels of Martin Baumgarten, A Nobleman of Germany, Through Egypt, Arabia, Palestine and Syria*, Vol. 1, Published by Awnsham and John Churchill, London, 1704.

Breydenbach (Bernard de), *Les saintes pérégrinations de Bernard de Breydenbach (1483)*, Texte et traduction annotée par le Père F. Larrivaz, Imprimerie nationale, Le Caire, 1904.

Broquière (Bertrandon de la), *Le voyage d'Outremer de Bertrandon de la Broquière*, Publié at Annoté par : Ch. Schefer, Ernest Leroux editor, Paris, 1892.

Casola (C.), *Canon Pietro Casola's Pilgrimage to Jerusalem in the year 1494*, By: M. Margaret Newett, Manchester, 1907.

Fabri (Félix), *Voyage en Egypte (1483)*, Traduit du Latin et annoté par Jacques Masson, éd. IFAO, Le Caire, 1975.

Ghistele (Joos Van), *Voyage en Egypte (1482-1483)*, Traduction et notes de Renée Bauwens-Préaux, IFAO, Le Caire, 1976.

Lengherand (George), *Voyage de George Lengherand (1485-1486),* Avec introduction et notes par : Le Marquis de Godefroy Ménilglaise, Imprimeurs de la Société des Bibliophiles, Mons, 1861.

Moranville (H.), "Un pèlerinage en Terre Sainte et au Sinaï au XVe siècle", in *Bibliothèque de l'école des Chartes,* Anée 1905, Vol. 66, N. 1, pp. 70-106.

Piloti (Emmanuel), *L'Égypte au commencement du XVe siècle d'après le traité d'Emmanuel Piloti de Crète*, Le Caire, 1932.

Récit anonyme d'un voyage à Jérusalem et au mont Sinaï, in *croisades et pèlerinages, récits, chroniques et voyages en Terre-Sainte XIIe-XVIe siècle*, Edition établie sous la direction de Danielle Regnier-Bohler, Paris, 1997, pp. 1168-1225.

Rochechouart (Louis de), "Journal de voyage à Jérusalem", in *croisades et pèlerinages, récits, chroniques et voyages en Terre-Sainte XIIe-XVIe siècle*, Edition établie sous la direction de Danielle Regnier-Bohler, Paris, 1997, pp. 1124-1167.

Salnt-Genols (Jules de), *Jean Van Berchem, voyageur barabançon du XVe siècle*, (Extrait du Messager des sciences historiques de Belgique), Imprimerie et Lithographie de3 L. Hebbelynck, Gand, 1856, pp, 1-11.

Schefer (M. Ch.), *Recueil de voyages et de documents pour servir à l'histoire de la géographie depuis le XIIIe jusqu'à la fin du XVIe siècle*, Vol. II (Le voyage de la sincte cyté de Hierusalem), Publié par : M. Ch. Schefer, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1882.

Semeonis (Symon), "Le voyage de Symon Semeonis d'Irlande en Terre-Sainte", in *croisades et pèlerinages, récits, chroniques et*

voyages en Terre-Sainte XIIe-XVIe siècle, Edition établie sous la direction de Danielle Regnier-Bohler, Paris, 1997, pp. 959-995.

Tafur (Pero), *Travels and Adventures of Pero Tafur (1435-1439)*, Translated and Edited with an Introduction by Malcolm Letts, Published by George Routledge and Sons, LTD., London, 1926.

رابعا: المراجع الغربية

Defrémery (Charles), *Voyage d'Ibn Batoutah*, Cambridge University Press, New York, 2012.

English (Edward D.), *Encyclopedia of the Medieval World*, Publisher: Facts On File, New York, 2005.

Mas Latrie, *Généologie des rois de Chypre de la famille de Lusignan, (Extrait de l'Archivio Veneto)*, Imprimerie de Marco Visintini, Venise, 1881

Peuchet (J.), *Vocabulaire des termes de commerce*, Paris, 1801.

Senebier (Pierre), *Traités des changes et des arbitrages*, Paris, 1797.

Travers (Emile), *Deux pèlerinage en Terre sainte au XVe siècle*, (Extrait de la Revue nobiliaire), Libraire Héraldique de J. Dumoulin, Paris, 1869, pp. 1-7.

Wansbrough (John), "A Mamluk Ambassador to Venice in 913/1507", in *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, University of London, Vol. 26, No. 3, 1963, pp. 503-530.

The Interpreter (trucheman) in the Mamluk era: a guide for European pilgrims

Abstract:

Despite the final exit of the Crusaders from all of the Levant (Bilad al-Sham) in 690 AH / 1291 AD, after the fall of Acre at the hands of Sultan Al-Ashraf Khalil bin Qalawun, and despite the numerous papal publications that prohibited and criminalized any trade with the Mamluk Sultanate, the pilgrimages to the East did not witness Such extremism did not stop, and the influx of these pilgrims from various European countries continued throughout the Mamluk period. This research comes to study the vital role played by the "Interpreter" in Egypt and the Bilad al-Sham in receiving these European pilgrims; This group was the mediator between these European arrivals on the one hand, and the Mamluk authorities and the people in Egypt and the Bilad al-Sham on the other. In fact, the task of translators was not limited to the translation process only, but they acted as guides for these pilgrims. They used to accompany them everywhere they went, and they were also the ones who prepared all the equipment for them during their travels from one city to another, as well as they acted as "tour guides" accompanying them in all their religious and archaeological sites. The research also highlights the most important Egyptian and Syrian cities in which these translators were present, and shows the most important services they provided to pilgrims, in addition to talking about the nature of the relations that linked them to pilgrims.

Keywords: Interpreter (trucheman) – Mamluk era – European pilgrims - Jerusalem – Cairo